الذبابة

جورج لانغلان

ترجمة: خليفة هزّاع

كتاب الدوحة

الذُّبَابَةُ

كتاب الدوحة
93

يُوَزَّع مجّانًا مع العدد (136) من مجلَّة «الدوحة» - فبراير - 2019

عنوان الكتاب: الذُّبَابَةُ
المؤلف: جورج لانغلان **- ترجمة:** خليفة هزّاع

الناشر: وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:
الترقيم الدولي (ردمك):

الإخراج والتصميم: القسم الفَنّي - مجلّة الدوحة
صورة الغلاف: Adam Juresko (أميركا)

هذا الكتاب:
يُعبِّر عن آراء مؤلِّفه، ولا يُعبِّر -بالضرورة- عن رأي وزارة الثّقافة والرياضة أو مجلّة الدوحة

جـورج لانغـلان

الذُّبَابَةُ

ترجمة

خـليفة هـزّاع

كتاب الدوحة

وُلِدَ جورج لانغلان George langelaan عام 1908 في باريس، وعاش حياةً حافلة، فقد شارك في الحرب العالمية الثانية جاسوساً وعميلاً خاصّاً. ومن المزاعم التي وردت في مذكّراته أنه خضع لعمليّة تجميليّة لتغيير ملامحه قبل إنزاله مظلّيّاً إبّان الحرب العالميّة الثانية، عام 1941، في فرنسا المُحتلّة بغية لقاء قوّات المقاومة الفرنسيّة، لكن ما لبث النازيّون أن ألقوا القبض عليه وحكموا عليه بالإعدام، لكنّه نجح في الفِرار عام 1942، وعاد إلى إنجلترا ليشارك في عمليّة إنزال نورماندي، التي تُعَدّ أكبر عملية غزوٍ بحريّ في التاريخ، وقد ساهمت في انتصار قوى التحالف على عدوّها النازيّ.

وأثّرت حياة المغامرات التي عاشها في كتاباته التي بدأ بها من بعد الحرب، عام 1950 إلى عام 1960، إذ كتب عدداً من الروايات والقصص القصيرة التي وجدت طريقها إلى الشاشتَين الصغيرة والكبيرة. وتُوفّي عام 1972 عن عمر يناهز الرابعة والستين.

لكن أكثر أعماله شهرةً هي قصّة «الذُّبَابَة» التي نشرها عام 1957، وقد اعتمد فيها أسلوب الروايات البوليسيّة، الذي ما يلبث أن يتحوَّل إلى الخيال العلميّ في تزاوج قد لا يكون سبقه إليه إلّا أسطوانة أساطين الخيال العلميّ، إسحق عظيموف، في روايته «كهوف الفولاذ»، التي نُشِرَتْ عام 1953، وكانت في معرض سلسلة الروبوتات التي تتضمَّن شَريحةً كبيرة من مُؤلَّفاته.

تحوَّلت «الذُّبَابَة» إلى فيلم سينمائيّ عام 1958، ثم إلى فيلم ثانٍ عام 1986، ثمّ إلى مسرحيّة أوبراليّة عام 2008.

George langelaan جورج لانغلان

(1908 - 1972)

- 1 -

إِنّ الهاتـفَ وجـرسَ الهاتـف دائمـاً مـا يُثـيران فيَّ الضيـق. قبـل سـنين مضـت، عندمـا كانـت الهواتـف -فـي الغالـب- مُثبَّتـة فـي الحائـط كنـت أكرههـا، ولكـن الآن، وبعـد أن باتت مغروسـة في كلّ ركـنٍ وزاوية، أصبحَت اقتحامـاً لخصوصيّـة المـرء. لدينـا مثـلٌ في فرنسـا مفـاده أنّ بائـع الفحـم عنـد البيـوت سـيّدٌ في بيتـه، ولكن مـع وجود الهاتـف لم يعد هـذا صحيحاً، وأظـنّ أنّـه حتّـى الرجـل الإنجليـزيّ لم يعـد مَلِـكاً في قلعتـه.

فـي المكتـب، يُضايقنـي رنـين الهاتـف المفاجـئ. فهـو يعنـي، أنّـه بالرغـم مـمّا أنـا فيـه مـن شـغل، وبالرغـم مـن عامـل البدّالـة، وبالرغـمٍ مـن سـكرتيرتي، وبالرغـم مـن الأبـواب والجـدران، فـإنّ رجـلاً مجهـولاً سـيأتي إلى غرفتـي وفـوق مكتبـي وسـيتحدَّث إلى أذني مباشرةً، رافعـاً الكُلفـة.. سـواءً أحببـتُ ذلـك أم لم أُحبِبْـه. وفي البيـت يكـون الشـعور

أكثر خزياً، ولكنّ أسوأ ما في الأمر هو أن يرنّ الهاتف في جوف الليل. لو أنّ لأيّ امرئٍ أن يراني وأنا أُشعل النور وأنهض بعينَين طارفتَين لإجابة الهاتف، أحسبني كنت أبدو له كأيّ رجلٍ نعسان غيري منزعج من المضايقة. ولكنّ الحقيقة في مثل هذه الحالة هي أنّني أجاهدُ مخاوفي، أنازع شعوراً بأنّ أمراً غريباً قد اقتحم عليَّ بيتي، وهو موجود في مخدعي. ومع قدوم اللحظة التي أتمكَّن فيها من الإمساك بالمسّرة والقول: «Ici Monsieur Delambre. Je vous ecoute»، أكون هادئاً هدوءاً ظاهريّاً، ولكنّني أعود إلى حالة أكثر طبيعيةً عندما أُميِّز الصوت القادم من الطرف الآخر، وعندما أعرف ما هو مطلوب منّي.

لقد أصبح هذا المجهود المُراد منه كبح ردّة فعل وخوف حيوانيَّين صَرفَين، أصبح نافذاً إلى حَد أنّه عندما اتّصلت بي كِنَّتي في الثانية صباحاً، تطلُب منّي الحضور فوراً، ولكن أن أبلّغ الشرطة أوّلاً بأنّها قد قتلَت أخي، سألتها في هدوءٍ كيف قتلَت آندريه؟ ولماذا؟.

- ولكن، يا فرانسوا! لا يمكنني شرح الأمر على الهاتف. أرجوك اتّصل بالشرطة، وتعالَ بسرعة.

- ربما يجدر بي رؤيتكِ أوّلاً، يا إيلين.

- لا، بل يحسن بك أن تتّصل بالشرطة أوّلاً، وإلّا فإنّهم سيبدؤون بسؤالك أسئلةً غريبة. إنّهم سيستصعبون، والحال على ما هي عليه، تصديقي في أنّني قد قتلته لوحدي.. وبالمناسبة، أحسب أنّك ينبغي عليك أن تخبرهم بأنّ آندريه.. بأنّ جثّة آندريه في المصنع. قد يرغبون بالذهاب إلى هناك أوّلاً.

- هل قلتِ إنّ آندريه في المصنع؟

- نعم.. تحت المطرقة البخاريّة.

- تحت ماذا؟!

- المطرقـة البخاريّـة! ولكـن لا تُكثر في السـؤال. أرجوك تعـالَ بسرعة، يا فرانسـوا! أرجـوك افهـم أنّني خائفـة.. أنّ أعصابي لا يمكنهـا الاحتمال أكثر!

هـل حاولـت سـابقاً أن تـشرح لشرطـيّ نعسـان بـأنّ كِنَّتَـك قـد اتّصلت بك مـن توِّهـا لتقـول إنّهـا قـد قتلَـت أخـاك بمطرقـة بخاريّة؟ كـرّرت شرحي على مسـامعه، ولكنّـه أبى أن يسـمح لي بذلك.

- وِي مسـيو، وِي، أسـمعك.. ولكـن مَـنْ أنـت؟ مـا اسـمك؟ وأيـن تعيش؟
قلـت: أيـن تعيش؟!

عنـد ذاك اسـتولى مفـوّض الشرطـة شـاراس عـلى الخـطّ وعـلى الأمـر برمّتـه. عـلى الأَقـلّ بـدا أنّه يفهـم كلّ شيء. هـل أنتظره؟ نعم، سـيُقلّني في سـيّارته إلى بيـت أخـي. متـى؟ بعـد خمـس دقائـق أو عـشر.

كنـت قـد تمكّنـت مـن ارتـداء بنطـالي، ودَسّ جذعـي في كنـزة، والتقـاط قبّعـة ومعطـف عندمـا توقّفَـتْ عند الباب سـيّارة سـتروين سـوداء، أنوارُها ساطعة.

- أحسـب أنّ لديكـم ناطـوراً ليليّـاً في مصنعكـم، يـا مسـيو دولامبر. هـل اتّصـل بك؟

قالهـا المفوّض شـاراس سـائلاً، مرخياً معشّـق السـيّارة فيـما أجلس إلى جانبـه وأصفق باب السـيّارة.

- لا، لم يفعـل. مـع أنّ بإمـكان أخـي دخـول المصنـع مـن معملـه، حيـث يعمـل كثـيراً مـن الأحيـان في وقـت متأخـر مـن الليـل.. أحيانـاً كلّ الليالي.

- وهل عملُ الأستاذ دولامبر متّصل بشغلك؟

- لا، بـل كان أخـي يقـوم بعمـل البحـوث لـوزارة سـلاح الجـوّ. وبمـا أنّـه كان يريـد البقـاء بعيـداً عـن باريس ومع ذلـك بالمقربة من العـمّال المهرة

الذين بإمكانهم إصلاح ما يمكن أن يستخدمه في تجاربه من آلات، الصغير منها والكبير، وصناعتها، فقد عرضتُ عليه إحدى الورشات القديمة التابعة للمصنع، وأتى هو للسكنى في أوّل بيت بناه جدّنا على أعلى التلّة في ظهر المصنع.

- نعم، أرى ما تقول. وهل تكلَّم عن عمله؟ أيُّ نوعٍ من العمل البحثيّ؟

- لم يكُن يتكلّم عنه إلّا لِماماً، كما تعلم. أحسب أنّ وزارة سلاح الجوّ بإمكانها إخبارك بذلك. لا أعلم إلّا أنّه كان بصدد القيام بعِدّةِ تجارب كان يُعدّها منذ شهور، شيءٍ ذي علاقة بتحليل المادّة، كما أخبرني.

فما كاد المفوض يبطّئ من سيّارته حتّى انعطف بها عن الطريق، ودَرَج بها من بوّابة المصنع المفتوح وأوقفها إلى جانب شرطيّ كان على ما يبدو في انتظاره.

ولم أكُن في حاجةٍ إلى سماع توكيد الشرطيّ، فقد أحسست الآن بأنّ أخي قد مات، وبدا كما لو أنّني أُخبِرتُ بذلك قبل سنين. واندفعت خارجاً من السيّارة وراء المفوّض وأنا أرتعش ارتعاش ورقة الشجر.

وخرج من المدخل شرطيٌّ آخر واقتادنا إلى إحدى الورشات، حيث كانت الإضاءات كلّها مُنارة. وكان المزيد من الشرطة واقفين بحذاء المطرقة، يراقبون رجلين يُجهّزان آلة تصوير. وكانت آلة التصوير مائلة إلى أسفل، وتجشّمت مجهوداً للنظر.

لقد كان الأمر أَقلّ فظاعة بكثير مِمّا تخيّلتُ. ومع أنّني لم أرَ أخي- قطّ- ثملاً إلّا أنّه بدا كما لو كان نائماً من بعد إفراطه في الشرب، منبطحاً على امتداد الخطّ الضيّق الذي تُساق فيه الألواح المعدنيّة البيضاء الساخنة إلى المطرقة. ورأيت من نظرةٍ سريعة أنّ رأسه وذراعيه بدوا كما لو كانوا كومة مسطّحة، ولكنّه أمر مستحيل. يبدو أنّه قد دسّ على نحوٍ ما رأسه وذراعيه إلى جسد المطرقة المعدنيّ.

استدار المفوّض إليَّ بعد أن فرغ من الحديث مع زملائه.

- كيف يمكننا رفع المطرقة، يا مسيو دولامبر؟

- سأرفعها لكم.

- أترغب بأنّ نرسل أحد رجالنا معك؟

- لا، سأكون على ما يُرام. انظر، ها هي ذي لوحة المفاتيح. لقد كانت المطرقة بخاريّةً في الأصل، ولكن كلّ شيء يعمل بالكهرباء الآن. انظر، أيّها المفوّض، لقد ضُبِطَت المطرقة على خمسين طنّاً، وأن يكون تلامسها على الصفر.

- على الصفر..؟

- نعم، مستواها مع الأرض، إنْ كنت تفضّل هذا التعبير. وهي مضبوطة على ضربات منفصلة، مّما يعني أنّه ينبغي رفعها بعد كلّ ضربة. لا أعلم ما عساها تقول كِنَّتي إيلين عن كلّ هذا، ولكنّني متأكّد من أمرٍ واحد، ألّا وهو أنّها لا تعلم كيف تضبط المطرقة، ولا أن تُديرها.

- ربما ضُبِطَت على هذه الإعدادات البارحة عندما انتهى العمل؟

- بالتأكيد لا. الضربة لا تُضبَط على الصفر أبداً، يا سيادة المفوّض.

- فهمت. هل يمكن رفعها برفق؟

- لا. إنّ سرعة رفع المطرقة لا يمكن تنظيمها. ولكن على أي حالٍ من الأحوال لا يكون الرفع سريعاً عندما تُضبَط المطرقة على ضرباتٍ منفصلة.

- صحيح. ألا أريتَني كيفيّة عملها؟ لن يكون أمراً يُسّر الأنظار، كما تعلم.

- لا، يا سيادة المفوّض. بل سأكون على ما يرام.

فقال المفوّض، وهو يسأل البقيّة:

- جاهزون؟ حسن، يا مسيو دولامبر. ابدأ متى ما أحببت.

وأنا أراقب ظهر أخي ضغطت في بطء، ولكن بشكلٍ ثابت على زرّ رفع المطرقة.

وبدّد صمتَ المصنع شهيقُ هواء مضغوط يتردَّد في الأسطوانات، وهو شهيق دائماً ما يجعلني أُفكّر في عملاق يلتقط نفساً عميقاً قبل أن يلخف عملاقاً آخر، واهتزّت كتلة المطرقة الفولاذيّة، ثمّ ارتفعَت بسرعة. وكذلك سمعت صوت الشفط الذي صدر عندما ارتفعَت من قاعدتها المعدنيّة، وظننتُ أنّني سأصاب بالهلع من مرأى جثّة آندريه وهي تنطرح إلى الأمام مع انصباب دفقة من الدم، تُثير في المرء الغثيان، على الكومة المُروِّعة التي كشفتها المطرقة.

- أما من خطر من نزولها ثانيةً، يا مسيو دولامبر؟

- لا، ما من خطر.

غمغمت بها وأنا أضغط على مفتاح الأمان، وبعد أن استدرتُ أصابني غثيانٌ عنيف أمام شرطي شابّ مُخضّر الوجه.

- 2 -

عمل المفوّض شاراس في هذه القضيّة لأسابيع بعد هذه الحادثة، ما بين استماع، وإلقاء أسئلة، وهرولة في أرجاء المكان، وكتابة تقارير، وإرسال البرقيّات، وإجراء الاتّصالات الهاتفيّة يمنةً ويسرة. في وقتٍ لاحق توطّدت أواصر الصداقة بيننا واعترف لي أنّه قد عدّني المشتبه به الأوّل لفترةٍ طويلة، وأنّه تخلّى عن تلك الفكرة أخيراً، ليس لعدم وجود دليل من أي نوعٍ يدعم ذلك وحسب، بل ولعدم وجود دافع للجريمة.

وكانت كِنَّتي إيلين شديدة السكينة طوال هذه المسألة ممّا حدا بالأطبّاء أخيراً إلى الجزم بما اعتبرته منذ مدّة طويلة الحَلّ الوحيد الممكن، ألا وهو أنّها مجنونة. وبما أن الحال كذلك، فلم تكُنْ ثمّة محاكمة بطبيعة الحال.

لم تحاول كِنَّتي -قطّ- الدفاع عن نفسها بأيّ نحوٍ من الأنحاء، وتضايقت كثيراً عندما أدركت بأنّ الناس ظنّوا بها الجنون، واعتُبر هذا بالطبع إثباتاً على كونها مجنونة. ولقد اعترفَت بجريمة قتل زوجها وبرهنت بيُسر على معرفتها للتعامل مع المطرقة، ولكنّها أبَت أن تقول سبب قتلها لأخي، أو كيف بالضبط قامت بذلك أو في ظِلّ أي ظروف تم ذلك. وكان اللُّغز الكبير هو كيف وضع أخي رأسه طوعاً تحت المطرقة؟ ولماذا؟، وهو التفسير الوحيد الممكن لدوره في هذه التمثيليّة.

وكان الناطور الليليّ قد سمع المطرقة، بل وسمعها مرّتين، على حَدّ زعمه. كان هذا أمراً غريباً، وبدا أن عدّاد الضربات الذي يُصَفَّر دائماً بعد الانتهاء من عملية الطرق، بدا أنّه يبرهن على صحّة كلامه، لأنّه كان يحمل العدد اثنين. وكذلك أكّد رئيس العمّال المخوَّل بأمر المطرقة أنّه قد أعاد عدّاد الضربات إلى الصفر كما هو معتاد، بعد التنظيف في اليوم السابق لجريمة القتل. وعلى الرغم من هذا ادّعَت إيلين أنّها قد استخدمت المطرقة مرّة، وبدا هذا برهاناً آخر على جنونها.

وتساءل المفوّض شاراس، الذي أُوكلَت إليه القضيّة، بادئ الأمر ما إن كان المجنيّ عليه أخي حقيقةً، ولكن لم يكُنْ هناك من شكٍّ في ذلك، وأقلّ دليل على ذلك الندبة الكبيرة التي تمتدّ من ركبته إلى فخذه، والتي نجمَت عن قذيفة ارتطمت بالأرض على مبعدة بضع أقدام منه أثناء التقهقُر العسكري عام 1940. وهناك أيضاً بصمات أصابع شماله التي تطابقت مع بصمات الأصابع الموجودة في كلّ المعمل وعلى أغراضه الشخصيّة في البيت.

وأُوكل حارسٌ بملازمة معمله، وفي اليوم التالي جاء ستّة من الموظّفين الحكوميّين من وزارة سلاح الجوّ، وأتوا على كلّ أوراقه وأخذوا بعضاً من آلاته، وقبل مغادرتهم أخبروا المفوّض بأنّ أكثر المستندات والآلات إثارةً للاهتمام قد دُمّرَتْ.

وأبلغَنا معملُ شرطة ليونز، وهو أحد أشهر المعامل في العالم، بأنّ رأس أندريه كان ملفوفاً في قطعة من المخمل عندما حطّمَته المطرقة، وفي أحد الأيّام أراني المفوّض شاراس خِرقة بالية ميَّزتُ فيها من فوري قطعة القماش المخمليّة البنّيّة التي رأيتُها من قبل على طاولةٍ في معمل أخي، وهي القطعة التي كانت تُقَدَّم عليها وجبات طعامه عندما لم يكُن بوسعه ترك عمله.

وبعد بضعة أيّام فقط في السجن نُقِلَت إيلينُ إلى مصحّة قريبة، وهي واحدة من ثلاث مصحّات في فرنسا، حيث يُرسَل المجانين من المجرمين للاعتناء بهم. ونُقِلَت إليَّ حضانة ابن أخي أُنري، وهو صبيّ في السادسة من عمره، وهو صورة أبيه، وفي نهاية المطاف تمّت كلّ الترتيبات القانونيّة لجعلي وليّاً عليه ووصيّاً.

وسُمِحَ لإيلين، التي كانت واحدةً من أهدأ مرضى المصحّة، باستضافة الزوّار فبتُّ أذهب لزيارتها أيّام الآحاد، وصحبني المفوّضُ مرّةً أو مرّتين، وعلمت فيما بعد بأنّه قد زار إيلينَ أيضاً لوحده. بيد أنّه لم يكُنْ بإمكاننا الحصول على أيّ معلومات من كِنَّتي التي يبدو أنّها قد أُصيبت بحالة بليغة من اللامبالاة. كانت لا تجيب عن أسئلتي إلّا فيما ندر، ولا تكاد تستجيب لأسئلة المفوّض. وكانت تُمضي الكثير من وقتها في الخياطة، ولكن كانت أفضلُ وسيلة عندها لتمضية الوقت هي اصطياد الذباب، والذين كانت تُطلق سراحهم في كلّ مرّة سليمين معافين بعد أن تتفحَّصهم في حرص.

بيد أنّ إيلين لم تُصَبْ إلّا بنوبةٍ واحدة من الهذيان- وكانت أشبه بانهيار عصبي منها بالنوبة، على حَدّ قول الطبيب الذي أعطاها المورفين ليهدّئ من ثائرتها- وذلك في اليوم الذي رأت فيه ممرّضة تقتل الذباب بمضرب الذباب.

وفي اليوم الذي تلا نوبة إيلين الواحدة والوحيدة، جاء المفوّض

شاراس لرؤيتي. قال:

- ينتابني شعورٌ غريب بأنّ مفتاح حَلّ المسألة يكمن هناك، يا مسيو دولامبر.

لم أسأله كيف علم بأمر نوبة إيلين.

- لست أفهمك، أيّها المفوّض. كان بإمكان المدام دولامبر المسكينة أن تُظهر اهتماماً استثنائيّاً تجاه أيّ شيءٍ آخر، في الحقيقة. ألا تظنّ أنّ موضوع الذباب يقع في حدود نزوعها إلى الهذيان؟

قال يسأل:

- هل تعتقد بأنّها مجنونة حقّاً؟

- يا عزيزي المفوّض، لست أرى إمكانيّة لوجود أيّ شكٍّ. هل تشكّ في ذلك؟

- لا أدري. فبالرغم من كلّ أقوال الأطبّاء إلّا أنّ لديّ انطباعاً بأنّ للمدام دولامبر دماغاً نظيفاً جدّاً.. حتّى وهي تصطاد الذباب.

- إذا افترضنا أنّك على حَقّ، كيف لك تفسير تصرُّفها تجاه ابنها الصغير؟ إنّها لا يبدو عليها البتّة أنّها تعدّه طفلاً لها.

- لقد فكّرت في هذا الأمر أيضاً، يا سيّد دولامبر. ربما تحاول حمايته. ربما تخاف من الصبيّ أو حتّى تكرهه؟

- أخشى أنّني لا أفهم مقصدك، يا عزيزي المفوّض.

- هل لاحظت، على سبيل المثال، أنّها لا تصطاد الذباب عندما يكون الطفل موجوداً؟

- لا. ولكن بعد مراجعة أفكاري أرى أنّك محقّ تماماً. نعم، إنّه أمر غريب.. ولكنّني لا أزال غير قادر على فهم مقصدك.

- ولا أنا، يا مسيو دولامبر. وأخشى كثيراً أنّنا لن نفهم الأمر البتّة، اللهمّ إلّا إذا تحسّنت حال كِنَّتِك.

- يبدو أنّ الأطبّاء يظنّون بأنّه ما من أمل من أيّ نوعٍ، كما تعلم.

- نعم. هل تعلم ما إن كان أخوك قد أجرى تجارب على الذباب قطّ؟

- لا أعلم، حقّاً، ولكنّني لا أظنّ ذلك. هل سألت رجال سلاح الجوّ؟ كانوا على علمٍ بكافّة أعماله.

- نعم، وضحكوا منّي.

- بإمكاني فهم ذلك.

- من حُسن حظِّكَ أن تفهم شيئاً، يا مسيو دولامبر. فما أنا بفاهم .. ولكنّني آمل أن أفهم يوماً ما.

- 3 -

- أخبرني، يا عمّاه، هل يحيا الذباب حياةً طويلة؟

كنّا نوشك على الانتهاء من غدائنا، في عادةٍ أرَّخناها فيما بيننا، وكنت أُهِمُّ بصبّ شيء من الشراب في كأس أُنري لكيّ يغمس قطعة بسكويت فيه.

ولو أنّ أُنري لم يكُنْ يحدّق إلى كأسه وهو يمتلئ بشكلٍ تدريجيّ إلى حافّته، لربما أخافه شيءٌ من نظرتي.

كانت هذه أوّل مرّة يذكر فيها الذباب قطّ، فارتعشتُ عندما جال في بالي أنّ المفوّض شاراس كان من الممكن أن يكون موجوداً. كان بإمكاني تخيُّل البريق الذي في عينه فيما هو يجاوب سؤال إبن أخي بسؤالٍ آخر. وكنت أكاد أستطيع سماعه وهو يقول: «لا أدري، يا أُنري. لماذا تسأل؟».

- *لأنّني رأيت الذبابة التي كانت ماما تبحث عنها مرّةً أخرى.*

ولم أُدرِكْ إلّا بعد أن شربت ما في كأس أُنري أنّه أجاب عن خاطرتي المنطوقة.

- *لم أكنْ أعلم بأنّ أمّك تبحث عن ذبابة.*

- *بلى، إنّها كذلك. ولقد كبُرَت كثيراً، ولكنّني تبيّنتُها.*

- *وأين رأيت هذه الذبابة، يا أُنري و.. كيف تبيّنتَها؟*

- *هذا الصباح على مكتبك، يا عمّي فرانسوا. ولها رِجلٌ مضحكة.*

فاستمررتُ في سؤالي، وقد بدأتُ أشعر بأنّني أشبه المفوّض شاراس، ولكنّني حاولتُ أن أبدو غير ذي اكتراث:

- ومتى رأيت هذه الذبابة أوّل مرّة؟

- *في اليوم الذي غادر فيه أبي. وكنت قد صدتها، ولكنّ ماما أجبرتني على إطلاق سراحها. وبعد ذلك، أرادت منّي العثور عليها من جديد. لقد غيّرَت رأيها.*

وأضاف وهو يهزّ منكبَيه، كما كان يفعل أخي بالضبط:

- *أنت تعلم بحالِ النساء.*

قلتُ قائماً من مقعدي ودالفاً إلى الباب:

- أظنّ أنّ تلك الذبابة ماتت ولا بدّ منذ أمدٍ بعيد، وأنّك مخطئ بالتأكيد، يا أُنري.

ولكن حالما خرجت من غرفة الطعام رقيتُ الدرج ركضاً إلى مكتبتي، ولم تكُن ثمّة أيّ ذبابة على مَدّ البصر.

وشعرت بضيق يجلّ على التفكير، فلقد أثبتَ أُنري أنّ شاراس قريبٌ من طرف خيط أكثر ممّا كان يبدو عليه عندما أخبرني بخواطره المُتعلّقة بما تُمضي به إيلين وقتها.

ولأوّل مرّة أتساءل ما إن لم يكُنْ شاراس يعلم أكثر ممّا أبدى. ولأوّل مرّة كذلك أتساءل عن إيلين، هل هي مجنونة حقّاً؟ وتنامى في داخلي شعورٌ غريب شنيع، وكلّما أكثرتُ التفكير فيه زاد إحساسي بأنّ شاراس محقّ بشكلٍ ما في ظنّه بأنّ إيلين ستفلت من العقاب!

أيّ سبب معقول يحدو إلى مثل هذه الجريمة الوحشيّة؟ ما الذي قاد إليها؟ وما الذي حصل بالضبط؟

وفكّرتُ في مئات الأسئلة التي ألقاها شاراس على إيلين، أحياناً في لُطفٍ كلُطفِ المُمرّضة التي تحاول أن تخفّف الألم، وأحياناً في برودٍ حازم، وأحياناً ما يرفع عقيرته بها في عنف. ولقد أجابت إيلين أَقلّ القليل من تلك الأسئلة، ودائماً ما كانت تجيب بصوت هادئ ولا يبدو عليها- قطّ- أيّ اكتراث من الطريقة التي طُرِحَ بها السؤال. وبالرغم ممّا كان بها من دُوارٍ إلّا أنّها بدَت كاملة العقل حينها.

ونظراً لما كان شاراس عليه من ثقافةٍ وحُسن تربيّة وسعة اطّلاع، فإنّه لم يكُن مجرّد ضابط شرطة ذكيّ، بل كان دارساً للنفسيّات نافذ النظرة، وكانت لديه طريقة رائعة في تشمُّم الأكاذيب والعبارات الخاطئة حتّى قبل أن يُنبَس بها. وكنت أعلم بأنّه قد اقتنع بصدق الإجابات القليلة التي أعطته، ولكن كانت هناك كلّ تلك الأسئلة التي لم تُجِبها، والتي هي أكثرها مباشرة وأهمّيّة. ولقد انتهجَت إيلين من البداية نَهجاً بسيطاً، إذ كانت تقول بصوتها الخفيض الهادئ: «لا يمكنني الإجابة عن هذا السؤال». وهذا يقضي الأمر عندها! ولم يبدُ عليها أنّ تكرار السؤال نفسه يضايقها، ففي كلّ ساعات الاستجواب التي خضعَت لها لم تُشِر إيلين- قطّ- إلى أنّه قد سألها سابقاً هذا السؤال أو ذاك، بل كانت تقول

ببساطة: «لا يمكنني الإجابة عن هذا السؤال».، كما لو كانت تلك أوّل مرّة يُطرح فيها ذلك السؤال بعينه، وأوّل مرّة تجيب عنه بتلك الإجابة.

ولقد باتت هذه العبارةُ اللازمةُ عائقاً كبيراً لم يتمكَّن المفوّض شاراس من مَدّ بصره، أو الحصول على فكرة عما يدور في ذهنها وراءه. لقد أجابت طوعاً عن كلّ الأسئلة التي تخصّ حياتها مع أخي- والتي بدَت حياةً سعيدة، تخلو من الأحداث- حتّى لحظة نهايته. غير أنّها لم تكُنْ تقول في أمر موته إلّا إنّها قد قتلته بالمطرقة البخاريّة، ولكنّها أبَت أن تذكُر السبب، وما الذي أدّى إلى تلك المأساة، وكيف تمكّنَت من حَمْل أخي على دسِّ رأسه تحتها. إنّها في حقيقة الأمر لم ترفض رفضاً مباشراً، بل كانت تعلوها نظرة خاوية، تخلو من أيّ انفعالٍ بادٍ، وتحوّل كلامها إلى: «لا يمكنني إجابتك عن هذا السؤال».

ولقد برهنَت إيلين، كما أسلفتُ، للمفوّض عن معرفتها بتشغيل المطرقة البخاريّة.

لم يستطِع شاراس العثور إلّا على حقيقة واحدة لم تكُنْ تتناغم مع تصريحات إيلين، ألا وهي كون المطرقة قد استُخدِمَت مرّتين. ولم يعُد شاراس على استعداد لقرنِ ذلك بجنونها، فذلك الخلل الواضح في حِصن إيلين الصخريّ بدا كالشرخ الذي قد يكون في مقدور المفوّض تكبيره. إلّا أنّ كِنَّتي رأبَته أخيراً بالإسمنت بأن اعترفت قائلة:

- حسنٌ، لقد كذبتُ. لقد استخدمتُ المطرقة مرّتَين. ولكن لا تسألني عن السبب، لأنّني لا يمكنني إخبارك.

- وهل هذا القول الوحيد غير الصحيح، يا مدام دولامبر؟

قالها المفوّض سائلاً، وهو يحاول تتبُّع ما بدت له فرصة سانحة.

- إنّه كذلك.. وأنت تعلم ذلك، يا سيادة المفوّض.

ورأى شاراس في ضيقٍ أنّ إيلين استطاعت قراءته كما لو كان كتاباً مفتوحاً.

ومرّ ببالي أن أتّصل بالمفوّض، ولكنّ علمي بأنّه سيبدأ في استجواب أُنري لا محالة جعلني أتردّد. وسببٌ آخر جعلني أتردَّد هو خوفٌ من نوعٍ مُبهَم من أن يبحث عن الذبابة التي تحدَّث عنها أُنري فيجدها. ولقد أزعجني ذلك أيّما إزعاج، لأنّني لم أستطع الوصول إلى أيّ تفسير مُرضٍ لذلك الخوف بعينه.

الأكيد أنّ آندريه لم يكُنْ من الأساتذة شاردي الذهن الذين يمشون في الأرض تحت الأمطار المنهمرة متأبطين مظلاّتهم المغلقة، بل كان إنساناً بشريّاً، ذا حسٍّ فكاهيّ عالٍ، يحبّ الأطفال والحيوان، ولم يكُنْ يستطيع تحمُّل رؤية أيّ كائن يعاني. ولقد رأيته كثيراً وهو يوقف عمله لمشاهدة موكب من كتيبة الرماة المحلّيّة، أو لرؤية مرور سائقي الدرَّاجات الهوائيّة في سباق دورة فرنسا، أو حتّى لمتابعة عرض السيرك حول القرية. لقد كان يحب ألعاب المنطق والدقّة، مثل البلياردو والتنس، والبريدج والشطرنج.

فكيف إذن يمكن تفسير موته؟ أيّ شيء حمله على وضع رأسه تحت المطرقة؟ إنّه لمن المستحيل بمكان أن يكون ذلك نتاج رهان غبيّ أو اختبار لشجاعته. فقد كان يكره الرهان، وكان يضيق بأولئك الذين ينغمسون فيه. فكلّما سمع رهاناً يُراهَن، كان دائماً ما يذكّر كلّ الموجودين بأنّ الرهان في آخر المطاف هو عقد بين أحمق ومحتال، وإن كان رمية بقطعة معدنيّة لاختيار الوجه أو الكتابة.

وبدا أنّه ما من ثمّة إلّا تفسيران لموت آندريه، فإمّا أن يكون قد جُنّ أو أنّه كان لديه سبب يحدوه إلى جعل زوجته تقتله بهذه الطريقة الغريبة المريعة. فما كان دور زوجته بالضبط في كلّ هذا الأمر؟ أليس من المُؤكَّد أنّهما لم يكونا مجنونَين معاً؟

بعد أن قرّرتُ أخيراً ألاّ أُخبر شاراس بالكشف الذي كشفه ابن أخي، جال في بالي أن أحاول استجواب إيلين بنفسي.

وبدا عليها أنّها كانت تنتظر زيارتي، فقد وصلَت إلى الصالة في الوقت نفسه- تقريباً- الذي عرّفتُ فيه رئيسة الممرّضات بنفسي وأُدخلت إلى الداخل.

قالت إيلين مُفسّرة حالما نظرتُ إلى المعطف المسدل من على كتفيها-:

- أردت أن أُريك حديقتي.

فنظراً لكونها واحدةً من النزلاء «المُتعقّلين»، فقد سُمِحَ لها بالدخول إلى الحديقة في ساعات مُحدَّدة من اليوم. ولقد طلبَت رقعة صغيرة من الأرض يمكنها أن تزرع الورد فيها، وحصلت عليها، وكنت قد أرسلت لها بذوراً، وبعض خمائل الورد من حديقتي.

وأخذتني من دون لأيٍ إلى دِكّة من الخشب، ذات منظرٍ بسيط، كانت في ورشة الرجال، وكانت موضوعة تحت شجرة كانت قريبة من رقعتها.

وفيما أنا أبحث عن الطريقة المُثلى لطَرْق موضوع موت آندريه، جلستُ برهة من الزمن أرسم أشكالاً مُبهَمة على الأرض بذؤابة مظلّتي.

قالت إيلين بعد حين:

- أريد أن أطلب منك شيئاً، يا فرانسوا.

- هل من شيء أستطيع فعله من أجلك، يا إيلين؟

- لا، إنّه مجرّد أمر أردت معرفته. هل يعيش الذباب طويلاً جدّاً؟

وإنّني لأحملق فيها إذْ هممتُ بأن أقول لها إنّ ابنها قد سأل السؤال

نفسه قبل بضع ساعات لولا أنّني أدركتُ فجأةً أن هذا هو المنفذ الذي كنت أبحث عنه، وحتّى أنّه قد يُعطيني الإمكانيّة لضرب ضربة قويّة، وإنّها لضربة قد تبلغ من قوّتُها أن تدكّ حِصنها الصخريّ، سواءً كانت عاقلة أو غير ذلك.

أجبتها وأنا أرقَبُها مليّاً:

- لا أعلم حقّاً، يا إيلين، ولكنّ الذبابة التي كنتِ تبحثين عنها كانت في غرفة مكتبي صباح اليوم.

لا جرم أنّني قد ضربت ضربة داكّة، فلقد أدارت رأسها بقوّة سمعت معها فرقعة عظام رقبتها. وفغرَت فاها، ولكنّها لم تنبس ببنتِ شفة، إلّا أنّ عينيها بدتا وكأنّما تصرخان من الفزع.

نعم، لقد كان من الجليّ أنّني قد حطّمت شيئاً بداخلها، ولكن ما هو؟ لا شَكّ أنّ المفوّض كان ليعلم ما يفعله بهذه الفرصة السانحة، أمّا أنا فلا. إنّ جُلَّ ما كنتُ أعلمه هو أنّه ما كان ليمنحها وقتاً للتفكير ممّا سيؤدي بالضرورة إلى استعادتها لدفاعاتها، غيرّ أنّ كلّ ما كان في مقدوري- وحتّى ذلك كان جهداً مضنياً- هو أن أحتفظ بوجهٍ خالٍ من التعابير، وكلّي أمل أن تستمرّ دفاعاتها في الانهيار.

لا بّد أنّها قد استغرقت زمناً من دون أن تتنفّس، لأنّها شهقت فجأة ووضعت كلتا يديها على فِيها الذي كان لا يزال فاغراً.

- فرانسوا.. هل قتلتها؟

همست بها، وعيناها لم تعودا ثابتتَين، وإنّما تتقلبان في كلّ بوصة في وجهي.

- لا.

- *إذن هي بحوزتك. هي معك الآن! أعطنيها!*

كانت تكاد تصرخ وهي تلمسني بكلتا يديها، وكنت أعلم أنّها لو كانت بها كفاية من قوّة لحاولت تفتيشي.

- *لا، يا إيلين، ليست عندي.*

- *ولكنّك تعلم الآن. لقد حزرت الحقيقة، أليس كذلك؟*

- *كلاّ، يا إيلين. لا أعلم إلّا شيئاً واحداً، ألا وهو أنّك لست مجنونة. ولكنّني أنوي معرفة الأمر برمّته، يا إيلين، وسأصل إلى كبد الحقيقة بطريقةٍ ما. ولكِ أن تختاري، فإمّا أن تخبريني بكلّ شيء، وسأرى ما أفعل في شأنه، وإلّا.......*

- *وإلّا ماذا؟ قُلها!*

- *كنت سأقول، يا إيلين... وإلّا فإنّني أؤكّد لكِ بأنّ صاحبكِ المفوّض سيمسك بتلك الذبابة بكرة الغد.*

ظلّت ساكنة وقد خشعت بناظرَيها إلى راحة يدَيها التي على حِجرِها، وبالرغم من أنّ الجوّ كان آخذاً في البرودة إلّا أنّ جبهتها ويدَيها كانت نَدِيَّة.

غمغمَت من دون أن تُميط خصلة من الشعر البنّيّ الطويل، ذراها النسيم على فمها:

- *إِنْ أنا أخبرتُك .. أَتَعِدُ بأن تقتل تلك الذبابة قبل أيّ شيء آخر؟*

- *لا، يا إيلين. لا يمكنني قطع مثل ذلك الوعد قبل أن أعلم بأمره.*

- *ولكن، يا فرانسوا، ينبغي عليك أن تفهم. لقد وعدتُ آندريه بقتل تلك الذبابة. وذلك وعد ينبغي أن يُوفَى به، ولا يمكنني قول المزيد قبل*

أن أتأكـد مـن وفائه.

تحسّسـتُ طريقـاً مسـدودة، غـير أنّنـي لم أكُـنْ خـسرتُ المعركـة بعـد، وإنّمـا خـسرتُ المبـادرة. فحاولـتُ أن أُطلـق رصاصـة في الظـلام:

- إيلـين، أنـتِ تفهمـين بطبيعة الحال أنّ الشرطة سـتدرك حالما تتفحّص الذبابـة بأنّكِ لسـت مجنونة، وبعدها...

- لا، يـا فرانسـوا! إكراماً لأُنـري! ألا تـرى؟ كنـت أترقّب تلـك الذبابة، كنت آمـل أن تجـدني هنـا، ولكنّهـا لم تتمكّـن مـن معرفـة مـا أحلّ بي. فـأيّ شيء تفعلـه غـير أن تذهـب إلى آخريـن تحبّهـم، إلى أُنـري، إليـك. أنـت الـذي قـد تعـرف ما يمكـن فعلـه وتفهمه!

أهـي حقّـاً مجنونـة، أم هـل كانـت تتظاهـر من جديـد؟ ولكن سـواءً كانت مجنونـة أم لـم تكُـنْ، فلقـد كانـت مشـغولة البـال. فقلـت مسرعـاً وأنـا أتسـاءل كيـف أُتبِـع هـذا الـكلام بهجمـة، وكيف أُكيـل الضربـة القاضية من دون المجازفـة بإبعادهـا عـن متنـاول اليـد:

- أخبريني بكامل الأمر، يا إيلين. عندها سيكون بإمكاني حماية ابنكِ.

- تحمـي ابنـي مـن مـاذا؟ ألا تـدرك أنّ وجـودي هنـا مبعثـه الوحيـد هو ألّا يكـون أُنـري ابنـاً لامـرأة أُعدِمَـت بالمقصلـة لاقترافهـا جريمـة قتل أبيـه؟ ألا تـدرك أنّنـي أُفَضِّـل المقصلـة كثـيراً عـلى الحياة في هـذه المصحّـة العقلية التـي هـي أشـبه بالموت؟

- أدرك ذلـك، يـا إيلـين، وسـأبذل قصـارى جهـدي لرعايـة الصبـيّ، سـواءً أخبرتِنـي أم لم تخبرينـي. وإن أبيتِ إخباري، سـأبذل قصارى جهدي لحماية أُنـري، ولكـن ينبغـي عليـكِ أن تفهمـي بـأنّ اللعبـة سـتكون قـد خرجـت مـن يـديّ، ذلـك أنّ المفـوّض شـاراس سيمسـك بالذبابة.

- ولكن لماذا ينبغي عليك أن تفهم الأمر؟

قالتها كِنَّتي، في لهجة تقريريّة أكثر منها استفسارية، وهي تنازع نفسها لضبط أعصابها.

- *لأنّه ينبغي عليّ ذلك، وسأعلم كيف مات أخي ولماذا، يا إيلين؟.*

- *حسنٌ، عُدْ بي إلى.. المصحّة، وسأعطيك ما سيعدُّه المفوّض اعترافاً.*

- *هل تعنين بأنّك قد كتبتِه!*

- *نعم. لم يكُنْ مكتوباً لك، ولكن على الأرجح لصاحبك المفوّض. لقد استشرفتُ أنّه سيصل إلى كبد الحقيقة عاجلًا أو آجلاً.*

- *إذن لا مانع لديكِ من أن يقرأه؟*

- *تصرَّف كما يمليه عليك فِكْرُك، يا فرانسوا، لكن انتظرني دقيقة.*

وتركتني إيلين عند باب الصالة وجرت ترقى الدرج إلى غرفتها، وبعد أَقلّ من دقيقة عادت ومعها مظروفٌ بنيٌّ كبير.

- *اسمع، يا فرانسوا، أنت لست بذكاء أخيك المسكين والمعيّته، ولكنّك لست قليل الذَّكاء. ولستُ أطلب منك إلّا أن تقرأ هذا في معزل. وبعد ذلك، بإمكانك أن تفعل ما يحلو لك.*

قلتُ وأنا آخذ المظروف الثمين:

- *أمّا هذا فأعدكِ به، يا إيلين. سأقرؤه الليلة، ومع أنّ يوم غدٍ لا تُسمَح فيه الزيارة إلّا أنّني سآتي لرؤيتكِ.*

- *كما تشاء.*

قالتها كِنَّتي من دون وداعٍ، وهي تعود أدراجها إلى الطابقِ العلويّ.

- 4 -

لم أقرأ الكتابة التي على المظروف إلّا عندما عدت ووصلتُ إلى البيت فيما أنا أمشي من المرآب إلى البيت، وكان فيها: «إلى مَنْ يهمّه الأمر» (والأرجح أنّ المقصود هو المفوّض شاراس).

وبعد أن أخبرت الخدم بأنّني سأتناول عشاءً خفيفاً يُقدَّم على الفور في مكتبي وأنّه من غير المسموح إزعاجي بعدها، جريتُ إلى الطابق العلويّ ورميتُ مظروف إيلين على مكتبي وأجريت فحصاً دقيقاً ثانياً للغرفة قبل أن أُوصد المصاريع وأن أُرخي الستائر، فلم أجد غير بعوضة ميتة منذ مدّةٍ طويلة مُلتصِقة بالجدار بالقرب من السقف.

وبعد أن أشرتُ إلى الخادمة بوضع صَحفتها على خوان بحذاء المدفأة صببتُ لنفسي كأساً من النبيذ وأغلقت الباب خلفها، ثمّ قطعت خطّ

الهاتف- وكنت دائماً ما أفعل هذا ليلاً- وأطفأت كلّ الأنوار فيما خلا المصباح الذي على مكتبي.

وبعد أن فضضتُ مظروف إيلين السميك بسكّين الرسائل أخرجتُ إضبارة مكتنزة من الصفحات التي رُصّت فيها الكتابة رصّاً. وقرأت السطور التالية التي كُتِبَت بشكلٍ مرتّب في منتصف السطر من الصفحة الأولى:

«هذا ليس اعترافاً، فعلى الرغم من قتلي لزوجي إلّا أنّني لست قاتلة. فلم أزِد عن أن حقّقتُ له آخر أمنياته ببساطة وأمانة شديدتَين، وذلك بسحق رأسه وذراعه اليمنى تحت المطرقة البخاريّة التي في مصنع أخيه».

ومن دون حتّى أن ألمس كأس النبيذ الذي كان عند مرفقي قلَّبت الصفحة وبدأت أقرأ.

وكان ما في المخطوطة هو الآتي...

***

لقد درج زوجي على إخباري ببعض تجاربه منذ ما يقرب العام قبل موته. وكان يعلم يقيناً بأنّ زملاءه من وزارة سلاح الجوّ كانوا ليمنعوه عنها بزعم خطورتها الشديدة، بيد أنّه كان حريصاً على الحصول على نتائج مُرضِية قبل أن يُعلِن عن اكتشافه.

ففي حين أنّ الصوت والصورة وحدهما يمكن إلى زماننا هذا نقلهما في أرجاء الجوّ عن طريق الهاتف والتلفاز، إلّا أنّ آندريه زعم بأنّه اكتشف

طريقة جديدة لنقل المادّة. إنّ المادّة- أيّما جسم صلب- إذا وُضِعت في «جهاز النقل» الخاصّ به فإنّها تتحلَّل على الفور ويُعاد تشكيلها في جهاز استقبالٍ خاصّ.

ولقد اعتبر آندريه اكتشافه أعظم اكتشاف ربما منذ اكتشاف العجلة التي اجتُزِئَت من جذع شجرة. ووقع في خاطره أنّ عمليّة نقل المادّة بـ «التحلّل وإعادة التشكيل» الفوريَّيْن ستُغيِّر تماماً الحياة التي نعرفها إلى هذا الزمان. فهي ستعني نهاية كلّ وسائل النقل، ليس البضائع بما فيها الفاكهة وحسب، وإنّما تمتدّ إلى بني البشر. ولقد استشرف آندريه- ذلك العالِمُ التطبيقيّ الذي ما كان ليسمح قطّ للنظريّات وأحلام اليقظة بالإمساك بخطامه- استشرف الزمان الذي لن تكون فيه أيّ طائرات أو مطارات أو محطّات قطار. سيُستبدَل بكلّ أولئك أجهزةُ نقل المادّة ومحطّات استقبال على امتداد العالم. سيوضع المسافرون والبضائع في حجرة خاصّة، ومع إشارة معطاة سيختفون، ثمّ لا يلبثون يظهرون في اللحظة نفسها تقريباً في محطّة استقبال منتقاة.

وكان جهاز الاستقبال الخاصّ بآندريه لا يبعد أكثر من أقدامٍ معدودة عن جهاز النقل الخاصّ به، إذ كان في غرفةٍ مجاورة لمعمله، ولقد مرّت به بادئ الأمر كافّةُ صنوف العوائق. ولقد أُجرِيَت أولى تجاربه الناجحة على منفضة تبغ من مكتبه، وكانت تذكاراً أحضرناه معنا من رحلة إلى لندن.

وكانت تلك أوّل مرّة يخبرني فيها عن تجاربه، ولم تكُنْ لديّ أدنى فكرة عمّا كان يتحدّث عنه يوم جاء إلى المنزل مندفعاً، ورمى المنفضة على حِجري.

- انظري، يا إيلين! لجزء من الثانية، عشرة من المليون من الثانية فقط، تحلّلَت تلك المنفضة تماماً. لم يَعُد لها وجود لهنيهة قصيرة من الزمن! ذهبَت! لم يبقَ منها باقية.. على الإطلاق! إنّما ذرّات ترتحل

عبر أرجاء الجوّ بسرعة الضوء! وبعد ذلك بهنيهة تجمّعت الذرّات مرّةً أخرى في صورة منفضة تبغ!

- أرجوك، يا آندريه.. أرجوك! عمَّ تهذي؟

فأخذ يرسم على رسالة كنت أكتب فيها. ثمّ ضحك في وجهي الكالح، وخمّ كلّ رسائلي من على الطاولة وقال:

- ألا تفهمين؟ حسن، دعينا نبدأ من البداية. أتذكرين، يا إيلين، أنّني قرأت عليك ذات مرّة مقالاً عن الصخور الطائرة الغامضة التي تنبثق فيما يبدو من غير ما مكان مُعيّن، والتي يُقال إنّها تسقط بين الفينة والفينة على بيوت بعينها في الهند؟ كانت تأتي من حالق كما لو كانت مرميّة من الخارج، وذلك يتمّ بالرغم من الأبواب والنوافذ المُوصَدة.

- نعم، أذكر. كما أذكر أنّ الأستاذ أُجيِيه، صديقك من جامعة فرنسا، الذي نزل عندنا ضيفاً بضعة أيّام، قد ذكر أنّه إن لم يكُنْ في الأمر حيلة فإنّ التفسير الوحيد المعقول هو أنّ الصخور تحلّلت بعد أن رُمِيَت في الخارج، ثمّ اخترقت الجدران، وبعدها تشكّلت من جديد قبل أن تضرب الأرضيّة أو الجدار المقابل.

- ذلك صحيح. وأضفت أنا أنّه بطبيعة الحال يوجد احتمالٌ آخر، ألا وهو التحلُّل الفوري الجزئيّ للجدران مع اختراق الصخور لها.

- نعم، يا آندريه، أتذكّر كلّ ذلك، وأحسبك تتذكّر أنّني لم أُفلح في فهمها، وأنّك تضايقت من جرّاء ذلك كثيراً. والواقع أنّني ما زلت لا أفهم لماذا تتمكّن الصخور- وإن تحلّلَت- من اختراق جدار أو باب مُغلَق، وكيف؟!.

- ولكنّه أمرٌ ممكن، يا إيلين، ذلك أنّ الذرّات التي تُكوِّن المادّةَ ليست قريبة بعضها من بعض كما اللبنات في الجدار. إنّها مفصولة بمسافةٍ شاسعة نسبيّاً.

- هل تقصد أن تقول إنّك قد حلَّلتَ تلك المنفضة، ومن ثمّ أعدتَ تشكيلها من بعد أن دفعت بها لاختراق ستارٍ ما؟

- بالضبط، يا إيلين! دفعتُ بها لاختراق الجدار الفاصل بين ناقِلي ومُستَقبِلي.

- وهل من الحماقة أن يسأل المرء كيف يمكن للبشريّة أن تستفيد من منفضة يمكنها اختراق الجدران؟

بدا آندريه منزعجاً إلى حَدٍّ كبير، ولكنّه سرعان ما رأى أنّني كنت أداعبه، ثمّ أخبرني وقد اشتدّ به الحماس من جديد عن النتائج المحتملة من اكتشافه، وأخيراً قال شاهقاً، وقد تقطّعت أنفاسه:

- أليس أمراً رائعاً، يا إيلين؟

- نعم، يا آندريه، ولكنّني آمل ألّا تنقلني أبداً. أخشى كثيراً أن أظهر في الطرف الآخر مثل منفضتك.

- ماذا تعنين؟

- أتذكر ما كان مكتوباً تحت تلك المنفضة؟

- نعم، بالطبع: صُنِعَ في اليابان. وتلك مزحة عظيمة إذا ما قُورِنَتْ مع تذكارنا الذي يكون في العادة بريطانيّاً.

- الكلمات لا تزال موجودة، يا آندريه، ولكن.. انظر!

فأخذ المنفضة من يدَيّ وقطّب ثمّ دلف إلى النافذة. ثمّ إنّه شحب، وعلمت في قرارة نفسي أنّه قد رأى ما كان قد أثبت لي أنّه أقدم على تجربةٍ غريبة.

لقد كانت الكلمات الثلاث موجودة، ولكن معكوسة، وفيها:

فخـفّ آندريـه إلى معمله مـن دون أن ينبـس ببنت شـفة وقـد نسي أمري تماماً. ولم أرَه إلّا صباح اليـوم التـالي، مُتعبـاً وغـير حالـق لذقنـه مـن بعد عمـل دام ليلـةٍ كاملة.

وبعـد بضعـة أيّام حصـل آندريـه عـلى نتيجـة معكوسـة أخـرى عكّـرت مزاجـه وهيّجـت أعصابـه وأثـارت غضبـه طيلـة بضعـة أسابيع. فصبرتُ عـلى الأمـر بصبرٍ جميـل برهـةً مـن الزمـن، ولكـن نظـراً لكـوني كنـت نكِـدة الأعصاب في إحـدى الليـالي فلقـد تشـاجرنا شـجاراً سـخيفاً عـلى أمـرٍ تافهٍ مـا، ولُمتـه عـلى تجهُّمـه.

- إنّـني آسـف، يـا شـيري،[1] لقـد كنـت أُشـقّ طريقـي خـلال متاهـة مـن المسـائل وعرّضتكـم لفترةٍ عصيبـة. فكما ترين، لقد فشـلَت تجربتي الأولى مـع حيـوانٍ حـيّ فشـلاً ذريعاً.

- آندريه! أجريت تلك التجربة على داندِلو، أليس كذلك؟

أجاب في ارتباك:

- نعـم. كيـف عرفـتِ؟ لقـد تحلَّـل تحلُّـلًا تامّـاً، ولكنّـه لم يظهـر أبـداً في جهـاز الاسـتقبال.

- آه، يا آندريه! ماذا أحلّ به إذن؟

- لا شيء.. لم يعُـد لداندِلـو وجـود، غـير ذرّاتِ قِـطّ متناثـرة تجـول في مـكان لا يعلمـه إلّا اللـه في هـذا الكـون.

لقـد كان داندِلـو قِطّـاً صغـيراً أبيـضَ وجدَتـه الطبّاخـة ذات صبـاح في الحديقـة واسـتأنسـناه. والآن أصبحـت أعلـم كيـف اختفـى وغضبـتُ مـن الأمـر كلّـه غضبـاً شـديداً، إلّا أنّ زوجي اشـتدّ بـه البؤس من جـرّاء الأمر إلى

(1) يا عزيزتي (فرنسيّة).

درجـة أنّنـي لم أنبـس بكلمـة.

ولم أرَ زوجـي في الأسـابيع القليلـة التاليـة إلّا قليـلًا، فقـد أمـر بإرسـال معظـم وجباتـه الغذائيّـة إلى المعمـل. وكنـت أسـتيقظ صباحـاً في أحيـانٍ كثـيرة لأجـد أنّ سريـره لم يُنَمْ عليـه. وأحياناً، عندما يعـود في هزيع متأخّر جـدّاً مـن الليـل، كنت أجد منظـراً كمنظر العاصفة حين تجتـاح المعمورة، لا يمكـن أن يُحدثـه في غرفـة إلّا رجـل اسـتيقظ مـن منامـه باكراً جـدّاً وأخذ يتلمّـس طريقـه في الظلام.

وذا مسـاء جـاء إلى البيـت مـن أجـل العَشـاء تعلـوه بسـماتٌ غامـرة، وعلمـت بـأنّ مصاعبـه قـد تبـدَّدَت. بيـد أنّ وجهه كلـح عندمـا رآني في ثياب الخـروج.

- أوه، أخارجة أنتِ، يا إيلين؟

- نعـم، فلقـد دعـاني آل دريلـون إلى لعبـة الـبرِدج، ولكـن يمكننـي بـكلّ بسـاطة أن أتّصـل بهـم هاتفيّـاً وأن أعتـذر عـن الدعـوة.

- لا، لا بأس.

- بل في الأمر بأس. قُلْ ما لديك، يا عزيزي!

- حسـنٌ، لقـد ضبطـتُ الأمـر بكاملـه وأردتُ أن تكـوني أوّل مَـنْ يـرى المعجـزة.

- Magnifique،[1] يا آندريه! بالطبع سيكون ذلك من دواعي سروري.

وبعـد أن اتّصلـت بجيراننـا وأعربت عن مدى أسـفي ومـا إلى ذلك، هُرِعتُ نازلـةً إلى المطبـخ في الطابـق السـفليّ وأخـبرتُ الطبّاخـة أنّ لديها بالضبط

(1) رائع (فرنسيّة).

عـشر دقائق لتُعِـدّ فيها «عشـاء احتفال».

وقـال زوجـي عندمـا بـرزَت الخادمـة ومعهـا الشـامبانيا مـن بعد عَشـائنا الـذي كانـت تنـيره أضواء الشـموع:

- *فكرة ممتازة، يا إيلين. سنحتفل بالشامبانيا التي أُعيد تشكيلها.*

وبعد أن أخذ الصحفة من يدَيّ الخادمة تقدَّمني إلى المعمل.

- *أتظنّ أنّها تكون بنفس جودتها قبل أن تتحلَّل؟*

سـألته بهـا وأنـا أمسـك بالصحفـة في حـين يفتـح هـو البـاب ويـضيء الأنـوار.

- *لا تخافي.. سترين! أحضريها إلى هنا، من فضلك.*

قالهـا وهـو يفتـح باب كشـك هاتـف عموميّ كان قـد ابتاعـه وحوَّله إلى ما أسـماه ناقـلاً. وأردف قائـلاً وهو يضع كرسـيّاً في داخل الكشـك:

- *ضعيها على ذلك الكرسيّ الآن.*

وبعـد أن أوصد البـاب في حـرص أخـذني إلى الطـرف الآخـر مـن الغرفـة ومَـدّ إليّ نظـارةً شمسـيّة شـديدة الدُّكنـة. ووضـع إلى عينَيـه نظّـارةً أخـرى وسـعى عائـداً أدراجـه إلى لوحـة مفاتيـح بحـذاء الناقـل.

وقال زوجي بعد أن أطفأ كلّ الأنوار:

- *جاهزة، يا إيلين؟ لا تخلعي نظّارتك حتّى أعطيك الإذن بذلك.*

- *لن أتزحزح من مكاني، يا آندريه، امضِ.*

قُلتهـا وعينـاي مثبّتتـان عـلى الصحفـة التي كنت أسـتطيع رؤيتها بمشـقّةٍ عـلى ضـوءٍ ذي لـون مـن تدرُّجـات اللـون الأخـضر مـن خـلال بـاب كشـك

الهاتـف الـذي فيـه ألـواح مـن زجـاج.

وقال آندريه وهو يُحرِّك مفتاحاً كهربائيّاً:

- حسنٌ.

فأضـاءت الغرفـة بأكملهـا بضـوءٍ سـاطع أحدثـه بريـقٌ برتقـاليٌّ اللـون. ورأيـت في داخـل الكشـك كـرةً مـن اللهـب مفرقِعـة وأحسسـت بحرارتهـا تلفـح وجهـي ورقبتـي ويـدَيّ. لم يسـتغرق الأمـر إلّا جـزءاً مـنٍ الثانيـة، ووجـدت نفسـي أطـرف بعينـي وأرى فجـوات سـوداء ذات حـوافٍ خـضراء كتلـك التـي يراهـا المـرء إذا مـا أطـال التحديـق إلى الشـمس.

- Et voila![1] *بإمكانكِ خلع نظّارتكِ، يا إيلين.*

وفتـح زوجـي بـاب الكشـك في شيء مـن التمثيـل المسرحـيّ. ومـع أنّ آندريه أخبرني بما يجب أن أتوقّعه إلّا أنّني دهشـت إذ وجدتُ أنّ الشـامبانيا والكـؤوس والصحفـة والكـرسيّ لم تَعُـد موجـودة هناك.

واقتـادني آندريـه مـن يـدي إلى الغرفـة المجـاورة متكلّفـاً الرسـميّة، وقد قـام في أحـد أركانهـا كشـك هاتف آخر. وبعـد أن فتح الباب عـلى مصراعيه رفـع صحفـة الشـامبانيا في نـصرٍ مظفّـر من عـلى الكرسيّ.

فكتمت رغبتي في أن أقول: «فعلتها بالمرايا»، وقد انتابني شـعورٌ كشـعور فـرد طيّـب دمـث مـن أفـراد جمهـور جرجـره سـاحرٌ إلى خشـبة العـرض في صالـة موسـيقيّة، وكنـت أعلـم أن قولتـي تلـك كانت لتضايـق زوجـي.

فسألته عندما تفرقَّعت فلّينة القارورة:

- أمتأكّد أنت أنّه ما من خطر في شُربها؟

---

(1) هتاف بالفرنسيّة تقديره «وها هو ذا».

قال وهو يمدّ لي كأساً:

- متأكّد تمام التأكُّد، يا إيلين. ولكن ذلك لم يكُنْ شيئاً ذا بال. اشربي هذا وسأُريكِ شيئاً أكثر إدهاشاً.

فعُدنا إلى الغرفة الأخرى.

- أوه، يا آندريه! تذكَّر داندِلو المسكين!

- ما هذا إلّا خنزير تجارب، يا إيلين. ولكنّني متأكّد من أنّ الأمر سيتمّ على أفضل وجه.

ووضع الحيوانَ الأوبر على أرضيّة الكشك المطليّة بمادّة المينا الخضراء وسارع بإغلاق الباب. ووضعتُ النظّارة الدكناء إلى عينَيّ مجدّداً ورأيتُ البريق الساطع المفرقِع وأحسستُ به.

ثمّ هُرِعت، من دون أن أنتظر أن يفتح آندريه الباب، إلى الغرفة المجاورة، حيث كانت الأنوار لا تزال مضاءة ونظرت إلى كشك الاستقبال.

وصرخت في حماس، وأنا أرى الحيوان الصغير يخبُّ هنا وهناك:

- آه، يا آندريه! شيري![1] إنّه موجود. إنّه لأمر رائع، يا آندريه. لقد تمّ الأمر! لقد نجحتَ!

- آمل ذلك، ولكن ينبغي عليّ أن أتحلّى بالصبر. وسأتيقّن في غضون أسابيع قليلة.

- ماذا تعني؟ انظر! إنّه مفعم بالحياة كما كان عندما وضعتَه في الكشك الآخر.

---

(1) يا عزيزي (فرنسيّة).

- نعم، إنّه يبدو كذلك. ولكن ينبغي أن نتثبّت من سلامة كلّ أعضائه، وسيتطلّب ذلك بعض الوقت. ولئن كان هذا الحيوان في كامل صحّته بعد شهر من الزمان، عندئذ سنعتبر التجربة ناجحة.

ورجوتُ آندريه أن يسمح لي بالاعتناء بخنزير التجارب، فوافق وقد افترَّ ثغره من حماسي بقوله:

- حسنٌ، ولكن لا تقتليه بالطعام الكثير.

ومع أنّني لم يكُنْ مسموحاً لي بأخذ هوبلا- وهو الاسم الذي أطلقته على خنزير التجارب- من قفصه الذي في المعمل، إلّا أنّني ربطت شريطاً ورديّاً حول عنقه وسُمِح لي بإطعامه مرّتين في اليوم.

وسرعان ما تعوَّد هوبلا على شريطه الورديّ واستأنس كثيراً، ولكنّ شهر الانتظار ذاك بدا كأنّه عام.

وذات يوم وضع آندريه ميكيت، كلبة طبّاختنا التي من نوع سبانيل، في «ناقله». ولم يكُن قد أخبرني بذلك قبل فعله، وهو يعلم علم اليقين بأنّني ما كنت لأوافقه على تجربة مثل هذه يُجرِّيها على كلبتنا. ولكن عندما أخبرني بذلك، كانت ميكيت قد انتقلَت ستّ مرّات بنجاح وبدا عليها أنّها تستمتع بالعمليّة تمام الاستمتاع. فلا تكادُ يُطلق سراحها من «مُعيد التشكيل» إلّا وتندفع في جنون إلى الغرفة المجاورة، تخمش باب «الناقل» لكي «تجرِّبها مرّةً أخرى»، على حَدّ تعبير آندريه.

وتوقّعتُ الآن أن يدعو آندريه بعضاً من زملائه ومن أخصّائيّي وزارة سلاح الجوّ إلى منزلنا. وكان عادةً ما يفعل ذلك عندما ينتهي من عملٍ بحثيّ، وقبل أن يسلّمهم تقارير طويلة مُفصَّلة يطبعها بنفسه على الآلة الكاتبة، كان يُجري أمامهم تجربةً أو تجربتَين. ولكن هذه المرّة استمرّ في العمل. وذا صباح سألته أخيراً متى ينوي إقامة «حفلته المفاجئة»، كما كنّا نسمّيها.

- لا، يا إيلين، لن أقيمها قبل أَمدٍ طويل. إنّ هذا الاكتشاف أهمّ كثيراً ممّا سبقه من اكتشافات. ووراثي شغلٌ كثير ينبغي إنجازه فيما يخصّه. هل تدركين أنّ ثمّة جزئيّات تتعلّق بعمليّة النقل لا أفهمها أنا نفسي تمام الفهم؟ العمليّة تتمّ كما ينبغي، ولكن لا يمكنني، كما ترين، أن أكتفي بأن أقول لهؤلاء الأساتذة المرموقين إنّني أفعل كذا وكذا والعمليّة تتمّ! ينبغي عليَّ أن أكون قادراً على تفسير الكيفيّة والسبب. والأهمّ من ذلك، ينبغي عليَّ أن أكون مُستعدّاً لتفنيد أيّ حُجّة هدَّامة من تلك الحُجج التي لن يتوانوا في تقديمها، كما يفعلون عادةً عندما يجدون أمامهم أمراً جيّداً جدّاً.

كنتُ أحياناً ما أُدعى إلى المعمل لأشهد تجربة جديدة، لكنّني لم أكُنْ أذهب إلى هناك إلّا إذا دعاني آندريه، ولم أكُن أتحدّث عن عمله إلّا إذا تطرَّق إلى الموضوع أوّلاً. وبطبيعة الحال لم يخطُر ببالي قطّ، أو على الأَقّل في تلك المرحلة، أنّه قد أجرى التجربة على إنسانٍ بشريّ. بيد أنّني لو فكّرت في الأمر- وأنا العالمة بطبع آندريه- لبات من الواضح لديّ أنّه ما كان ليسمح لمخلوق قطّ بالدخول إلى «الناقل» قبل أن يمرّ بالتجربة ليختبره أوّلاً. ولم أكتشف إلّا بعد الحادثة أنّه قد صنع من كلّ مفتاح زوجين ووضعها بداخل كشك التحلُّل، لكي يتمكّن من تجربته بنفسه .

وفي صبيحة اليوم الذي أجرى فيه آندريه تلك التجربة المريعة لم يبرز على مائدة الغداء، فأرسلت الخادمة بصحفة إليه، ولكنّها عادت بالصحفة وعليها مكتوبٌ وجدَته مثبّتاً على باب المعمل من الخارج بدبّوس وفيه: «لا تزعجوني، فأنا أعمل».

وكان أحياناً ما يثبّت مثل هذه المكاتيب على بابه، ومع أنّني لاحظت خطّ المكتوب الذي كان أكبر من المعتاد إلّا أنّني لم أُعر ذلك التفاتاً.

وما هي إلّا أن دخل عليّ الغرفةَ أُنري يتواثب، وأنا أشرب قهوتي، ليقول

إنّـه قـد أمسـك بذبابـة غريبـة، وإنّـه يرغب بأن يُرينـي إيّاها. فأمرتـه بإطلاقها رافضـةً مجرّد النظـر إلى كفّه المقبوضة.

- *ولكن، يا ماما، إنّ لها وجهاً أبيضَ مضحكاً.*

فاقتـدتُ الصبـيّ إلى النافـذة المفتوحـة وطلبـت منـه أن يطلـق الذبابـة فـوراً، وهـو مـا فعلـه. وإنّنـي لأعلـم بـأنّ أُنري قـد أمسـك بالذبابـة لأنّه وجد في مظهرهـا مـا أثـار فضولـه أو وجـده مختلفـاً عـن باقـي الذبـاب، ولكّننـي لأعلـم أيضـاً أنّ أبـاه مـا كان ليسـمح بـأيٍّ نـوعٍ مـن أنـواع القسـوة في حـقّ الحيوانـات، وأنّـه سيملأ الدنيـا جعجعـةً إذا مـا اكتشـف أن ابننـا قـد وضـع ذبابـة في صنـدوق أو زجاجـة.

وفي وقـت العَشـاء مـن تلـك العشـيّة، لم يكُـنْ آندريـه قـد ظهـر بعـد، فرملـتُ إلى المعمـل وقـد ساورني بعـض القلـق وطرقـتُ البـاب، ولكنّه لم يُجِـب طرقـاتي، إلّا أنّنـي سـمعته وهو يتحـرّك في أرجاء الغرفـة، وما كادت تمـرّ لحظـة إلّا وقـد دسّ مكتوبـاً مـن تحـت البـاب، وكان مطبوعـاً بالآلـة الكاتبـة وفيـه: «إنّنـي أمُـر بمصاعـب، يـا إيلـين. خـذي الصبـيّ إلى الفـراش وعـودي بعـد سـاعة مـن الزمـان. آ».

فطرقـت البـاب وناديـت باسـمه وقـد اسـتبدّ بي الخـوف، إلّا أنّ آندريـه لم يُعـر ذلـك التفاتـاً عـلى مـا يبـدو، فعـدتُ إلى البيت وقـد اطمأنَنـت طمأنينة مبهمـة مـن صـوت آلتـه الكاتبـة المألوف.

وبعـد أن أخـذت أُنـري إلى الفـراش عـدتُ إلى المعمـل، حيـث وجـدتُ مكتوبـاً آخـر قـد دُسَّ من تحـت الباب. وكانـت يدي ترتعش فيـما أنا ألتقطه لأنّنـي بـتُّ أعلـم بـأنّ في الأمـر مكروهـاً شـنيعاً. فقـرأت الآتي ...

«يـا إيلـين، أوّلاً سـأعوّل عـلى حصافتـكِ في ألّا تفقدي أعصابـك أو تقومي بعمـل طائـش لأنّـك الوحيـدة القـادرة عـلى مسـاعدتي. لقد مـررت بحادث خطـير. إنّنـي لسـت في خطـرٍ مُعـيَّن في الوقـت الراهـن، مـع أنّهـا مسـألة

حياة أو موت. إنّ مناداتكِ أو قولكِ أي شيء لي أمرٌ لا نفع منه، فلا يمكنني إجابتكِ، ولا يمكنّني الكلام. أريد منكِ تنفيذ كلّ ما أطلبه منكِ بحذافيره وبدقّة. وبعد أن تطرقي الباب ثلاث مرّات لتُظهري لي بأنّك قد فهمتِ قولي ووافقتِ عليه أحضري لي وعاءً فيه حليب ممزوج بالرَّم، فلم أذق شيئاً من الزاد طيلة اليوم ولا أطيق البقاء أكثر من دونه».

فطرقت الباب ثلاثاً كما هو مطلوب، وأنا ارتعش من الخوف ولا أدري ما ينبغي عليّ التفكير به وأكبح بين جوانحي رغبة بمناداة آندريه وقرع الباب حتّى يفتحه، وركضت عائدة إلى المنزل لأحضر له ما أراده.

وبعد ما يقلّ عن الخمس دقائق عدت ووجدتُ مكتوباً آخر مدسوساً من تحت الباب وفيه:

«يا إيلين، اتّبعي هذه الإرشادات بدقّة. عندما تطرقين الباب سأفتحه وستمشين إلى مكتبي وتضعين عليه وعاء الحليب، ثمّ ستدخلين الغرفة الأخرى، حيث يوجد المُستقبِل. ابحثي بحثاً دقيقاً وحاولي العثور على ذبابة ينبغي أن تكون هناك، ولكنّني لا يمكنني العثور عليها. مع الأسف لا يمكنني رؤية الأجسام الصغيرة بسهولة.

«وقبل أن تدخلي ينبغي عليكِ أن تَعِدي بأن تطيعي أمري طاعةً تامّة. لا تنظري إليّ وتذكّري بأنّ الكلام لا جدوى منه، فلا يمكنني إجابتكِ. اطرقي الباب تارةً أخرى ثلاث مرّات.

«سيعني هذا أنّكِ تعدين بما أسلفتُ. إنّ حياتي تعتمد اعتماداً كاملاً على المعونة التي تستطيعين إمدادي بها».

اضطررتُ إلى التلبُّث برهة لألملم شتات نفسي، بعد ذاك طرقت الباب ثلاثاً في بطء، وسمعتُ آندريه يدلف خلف الباب ثمّ سمعت يده وهي تعبث بالقفل ثمّ انفتح الباب.

ولحظتُ بطرف عيني أنّه كان واقفاً خلف الباب، ولكنّني حملت وعاء

الحليب إلى المكتب من دون أن ألتفت إليه. لقد كان يراقبني بالتأكيد وينبغي عليّ أن أَظهر في مظهرِ هادئ الأعصاب ثابت الجنان مهما كان الثمن.

- يا شيري، يمكنك الاعتماد عليّ.

قلتها في رقّة، وبعد أن وضعتُ الوعاء تحت مصباح المكتب، وهو مصدر الضوء الوحيد الذي كان مُشعَلاً، دلفتُ إلى الغرفة المجاورة، حيث كانت الأنوار كلّها ساطعة.

وكان الانطباع الأول الذي تكوَّن لديّ أنّ ضرباً من الزوابع قد انطلق عاصفاً من كشك الاستقبال، فقد كانت الأوراق مبعثرة في كلّ اتّجاه، وقبع صفٌّ كامل من أنابيب الاختبارات مهشّماً في ركن من أركان الغرفة، وكانت الكراسي من ذوات الظَّهر وغير ذوات الظَّهر في حالة من الفوضى، وتدلَّت إحدى الستائر نصف مشقوقة من قضيبها الذي اعوجَّ، وفي طست صقيلٍ كبير على الأرض كانت ثمّة مستندات محترقة لا تزال تستعر.

ووقر في صدري أنّني لن أتمكّن من الإمساك بالذبابة التي أراد آندريه منّي البحث عنها. إنّ النساء يُحسسن بالأشياء التي لا يمكن للرجال إلّا افتراضها بالحُجّة والاستنتاج. إنّه ضرب من المعرفة لا يتأتّى لهم إلّا لماماً ويسمّونه باستخفاف حدساً. كنت أعلم بأنّ الذبابة التي يريدها آندريه هي نفسها الذبابة التي اصطادها أُنري والتي أجبرته على إطلاق سراحها.

سمعتُ آندريه يذرع الغرفة المجاورة دلفاً، ثمّ سمعت غرغرةً وصوت مصٍّ كما لو أنّه يعاني من مشقّة في شرب حليبه.

- لا توجد ذبابة هنا، يا آندريه. هل من تلميح من أيّ نوع قد يساعدني في مسعاي؟ إن لم يكُن بإمكانك الكلام، فاطرق أو اعمل شيئاً مشابهاً،

كما تعلم. طرقة تعني نعم، وطرقتان تعنيان لا.

حاولت السيطرة على صوتي وكلامي لأبدو هادئة تمام الهدوء، ولكنّني اضطررت إلى خنق عَبرةِ يأس عندما طرق طرقتين يريد بهما أن «لا».

- هل تسمح لي بالقدوم إليك؟ لا أعلم أيّ شيء أَحلّ بك، يا آندريه، ولكن كائناً ما كان، فسأتحلّى بالشجاعة، يا عزيزي.

وبعد لحظة صمت طرق طرقة على مكتبه.

وعند الباب توقّفتُ مشدوهة من مرأى آندريه وهو واقف ورأسه ومنكباه مغطَّين بقطعة القماش المخمليّة التي كان قد أخذها من على خوانٍ بحذاء مكتبه، وهو الخوان الذي كان عادةً ما يأكل عليه عندما لا تكون به رغبة في مغادرة عمله. فقلت وقد كتمتُ ضحكة كان من السهل عليها أن تتحوَّل إلى نحيب:

- سنبحث بحثاً شاملاً غداً، يا آندريه، مع وضح النهار. لِمَ لا تأوي إلى فراشك؟ سآخذك إلى غرفة الضيوف إن أحببتَ، ولن أسمح لأحد غيري برؤيتك.

وطرقَت شمالُه المكتبَ طرقتَين.

- هل أنت في حاجة إلى الطبيب، يا آندريه؟

طَرَق أن «لا».

- هل ترغب منّي أن أتّصل بالأستاذ أُجِيِيه؟ قد يكون ذا عونٍ أكثر منّي.

فطَرَق طرقتَين أن «لا» في حِدّة، فلم أدرِ ماذا أفعل أو أقول. ثمّ إنّني قلت وأنا أخبره:

- لقد أمسك أُنري بذبابة صباح اليوم، وكان يريد أن يُريني إيّاها،

ولكنّني أرغمته على إطلاق سراحها. أيمكن أن تكون الذبابة التي تبحث عنها؟ لم أرَها، ولكنّ الصبيّ قال إنّ رأسها أبيض.

أخرج آندريه تنهُّدة غريبة ذات رنين معدنيّ، ووجدتُ من الوقت ما يكفي بشق الأنفس لعضّ أصابعي بعنف لكيلا أصرخ. لقد أدلى ذراعه اليمنى، وعوضاً عن يده العَضِلة ذات الأصابع الطويلة، تدلّى من كُمِّ قميصه عودٌ رماديّ عليه ما يُشبه البراعم الصغيرة كما الأغصان في الشجرة، ممتدّاً إلى ما يقارب ركبته.

- آندريه، يا شيري، أخبرني بما جرى. قد أكون ذات عون أكثر لك لو أنّني علمت بما جرى. آندريه... آهٍ، إنّه أمرٌ مريع!

وانتحبتُ غير قادرة على السيطرة على نفسي.

وبعد أن طَرَق طَرْقة أن نعم، أشار إلى الباب بشماله.

فخرجتُ وسُختُ وأنا أبكي فيما أُوصدَ هو الباب ورائي. وأخذ يطبع على الآلة الكاتبة من جديد فانتظرتُ. وأخيراً دلف إلى الباب ودسّ من تحته ورقة فيها:

«عودي صباحاً، يا إلين. ينبغي عليّ أن أفكّر في الأمر، وسأكون قد طبعتُ تفسيراً لكِ. تناولي واحدة من حبوبي المُنوِّمة وأوي إلى الفراش رأساً. أحتاج إليكِ نَضِرة قويّة غداً، MA PAUVRE CHERIE.[1] آ».

صرخت من وراء الباب:

- هل تريد شيئاً قبل أن آوي إلى فراشي، يا آندريه؟

فطَرَق طرقتَين أن لا، وبعد هنيهة سمعت طقطقة الآلة الكاتبة من جديد.

---

(1) يا عزيزتي المسكينة (فرنسيّة).

وأيقظتني الشمس التي ألقت بكامل أشعّتها على وجهي مجفلةً. كنت قد ضبطتُ المنبّه على الساعة الخامسة ولكنّني لم أسمعه، ربما بسبب الحبوب المُنوِّمة. لقد نمت كما لو كنتُ جذع شجرة مُطرَّحاً، من دون أحلام. والآن عدتُ إلى كوابيس يقظتي فوثبتُ من السرير وأنا أبكي بكاء الأطفال. وكانت الساعة تمام السابعة!

وإذ هُرِعتُ إلى المطبخِ، أعددتُ- من دون أن أنبس بكلمة للخَدَم الجافلين- ما ملأ صحفةً من القهوة والخبز والزبدة، وحملتها جرياً إلى المعمل.

وفتح آندريه الباب حالما طرقتُه ثمّ أغلقه من جديد وأنا أحمل الصحفة إلى مكتبه. كان وجهه ما يزال مغطّى، ولكنّني استنبطتُ من بدلته المتغضّنة ومن سرير المخيّمات الخاصّ به المفتوح أنّه قد حاول ولا بّد أن يحظى بشيء من الراحة.

وكانت على مكتبه ورقة مطبوع عليها بالآلة الكاتبة موجّهة إليّ فالتقطتها. وفتح آندريه الباب الآخر، فدلفتُ إلى الغرفة المجاورة وقد استنتجتُ من فعلته أنّه يريد أن يكون لوحده. فَرَدَّ البابَ وسمعته وهو يشفط القهوة في حين قرأت التالي:

«هل تذكرين تجربة منفضة التبغ؟ لقد أحلّ بي حادث مشابه لها. لقد «نقلتُ» نفسي الليلة قبل البارحة. وخلال التجربة الثانية أمس لا شكّ أنّ ذبابة لم أرَها قد دخلت «المُحلِّل». وأملي الوحيد هو أن أعثر على تلك الذبابة وأن أمرّ بالعمليّة مرّةً أخرى معها. أرجو منكِ أن تبحثي عنها بحثاً دقيقاً، لأنّنا إنْ لم نعثر عليها فسأضطرّ إلى الوصول إلى طريقة لإنهاء هذا الأمر برمّته».

لو أنّ آندريه صرّح بأكثر مما قال! ارتجفت إذ جال بخاطري كونه قد تشوّه تشوّهاً شنيعاً ثمّ بكيت بكاءً خفيفاً وأنا أتخيّل وجهه وقد انقلب داخله خارجه، أو ربما عينه جاءت مكان أذنه، أو فمه في

قفـاه، أو أسـوأ مـن ذلـك.

لا بدّ من إنقاذ آندريه! ولذلك لا بدّ من العثور على الذبابة!

فقلتُ وقد لملمتُ شتات نفسي:

- *هل يمكنني الدخول، يا آندريه؟*

ففَتَح الباب.

- *لا تيأس، يا آندريـه، فسأعثر علـى الذبابـة. لم تعُـد موجـودة في المعمـل، ولكـن لا يمكـن أن تكون قد ابتعدَت كثيراً. أحسُبك قد تشـوَّهت، وربمـا تشـوَّهتَ تشـوُّهاً مريعاً، ولكـن لا مجال لإنهاء الأمـر برمّته، على حَدّ قولـك في مكتوبـك. لـن أسـمح بذلـك أبـداً. فـإن كان ولا بـدّ، وكنـت ترغـب بـألّا يـراك أحـد، فسـأصنع لـك قناعـاً أو بُرنُسـاً لـكي يتسـنّى لـك المُـضيّ في عملـك. وإن لم يكُـن بإمكانـك العمـل فسأستدعي الأسـتاذ أُجيِيـه، وسـينقذك هـو وكلّ أصدقائـك الآخريـن، يـا آندريـه.*

وسـمعتُ تلـك التنهُّـدة الغريبـة ذات الرنين المعدنيّ مـرّةً ثانية فيما أخذ يطـرق علـى مكتبه في عنف.

- *لا تنزعـج، يـا آندريـه. اهـدأ، فلن أفعل شـيئاً مـن دون استشـارتك أوّلاً، ولكـن ينبغـي عليـك الاعتـماد علـيَّ، والوثوق بي، والسـماح لي بمسـاعدتك بقـدر الإمـكان. هـل تشـوهتَ إلى حَد مريع، يـا عزيزي؟ ألا يمكنك السـماح لي برؤيـة وجهـك؟ لـن أخـاف، فأنـا زوجتك، كـما تعلم.*

ولكنّ زوجي طَرَق مرّة أخرى أن «لا» طرقاً باتّاً وأشار إلى الباب.

- *حسـنٌ. سـأذهب للبحـث عـن الذبابـة الآن، ولكـن عِـدني ألّا تُقـدِم علـى حماقـة. عِـدني ألّا تفعـل فعلـة طائشـة أو خطـيرة مـن دون أن تُعلِمنـي بها أوّلاً!*

فمدَّ شماله، وعلمتُ بأنّني قد حصلتُ على وعدٍ منه.

ولـن أنـسى البحث المسـتمرّ عـن الذبابة الـذي دام طيلة اليـوم. وبعد أن عـدتُ إلى المنزل قلبتُه رأسـاً عـلى عقب وأشركتُ الخـدم كلّهم في البحث. أخبرتهـم بـأنّ ذبابـة قـد فـرَّت مـن معمـل الأسـتاذ وأنّـه ينبغـي الإمسـاك بهـا حيّـةً، ولكـن كان مـن الواضـح أنّهـم ظنّـوني مجنونـة. ولقـد قالـوا ذلك للشرطـة فيـما بعـد، والأرجـح أنّ ذلـك البحـث الـذي دام طيلـة اليـوم قـد أنقـذني مـن المقصلـة لاحقاً.

اسـتجوبتُ أُنـري، ولمّـا لم يفهم رأسـاً ما كنت أتكلَّم عنـه هززته وصفعته وجعلتـه يبـكي أمـام الخادمـات الـلاتي اتّسـعت عيونهـنّ. وبعـد أن أدركـتُ أنّـه ينبغـي عـليّ ألاّ أطلـق العنـان لجـماح نفـسي قبّلـتُ الصبـيّ المسـكين وداعبتـه وأخـيراً أفهمتُـه مـا أردتُه منـه. فنعـم، كان يذكر الأمـر، ولقد وجد الذبابـة بحـذاء نافـذة المطبـخ، ونعـم، لقـد أطلـق سراحهـا مـن فـوره كـما طلبـتُ منه.

كنّـا حتّـى في الصيـف لا نجـد إلّا القليـل مـن الذبـاب في منزلنـا القائـم في قمّـة تـلٍّ، والـذي كانـت أخفّ النسـائم القادمـة من الوادي تنسـنس في أرجائـه. فعـلى الرغـم من ذلك اسـتطعتُ الإمسـاك بعـشرات الذباب ذلك اليـوم. فقـد وضعـت صحونـاً عـلى أعتـاب كلّ النوافـذ وفي أرجـاء الحديقة فيهـا الحليـب والسـكّر والمربّى واللحـم.. كلّ ما يمكنه جـذب الذباب. ومن بـين كلّ الذبـاب الـذي أمسـكنا بـه، وغيره الكثـير الذي أخفقنا في الإمسـاك بـه ولكنّنـي رأيتـه، لم تشـبه واحـدة منهـا الذبابـةَ التـي أمسـك بهـا أُنري في اليـوم السـابق. فتفحّصـت كلّ ذبابـة غريبـة، واحـدةً واحـدة، بالعدسـة المكّـبرة، ولكـن لم يكُـن لأيٍّ منهـا وجـّه أبيض.

وعنـد وقـت الغـداء هُرِعـتُ إلى آندريـه ببعـض الحليـب والبطاطـس المهروسـة. وأخـذت معـي بعضـاً مـن الذبـاب الـذي أمسـكنا بـه، ولكنّـه أوحـى إليّ بأنّهـا غـير ذات نفـع لـه.

- إن لم يُعثر على تلك الذبابة الليلة، يا آندريه، سنرى ما يجب عمله. وهذا ما أقترحه .. أن أبقى في الغرفة المجاورة. وعندما لا تتمكَّن من الإجابة بطريقة الطَّرْق إيجاباً أو نفياً، ستطبع لي بالآلة الكاتبة ما تريد، كائناً ما كان، ثمّ تدسّه من تحت الباب. اتّفقنا؟

فأجاب آندريه طَرْقاً أن «نعم».

وأرخى الليل سدوله ولمّا نجد الذبابة بعد. وعند وقت العَشاء، وفيما أنا أُجهِّز صحفة آندريه، انهرتُ وأخذتُ أنتحب في المطبخ بين أيدي الخدم الصامتين. وظنَّت خادمتي أنّني قد تشاجرتُ مع زوجي، ربما في موضوع الذبابة الضائعة، ولكنّني علمتُ لاحقاً بأنّ الطبّاخة كانت متأكّدة تماماً عندئذ بأنّني قد فقدت صوابي.

ورفعتُ الصحفة من دون أن أنبس ببنت شفة ثمّ أنزلتُها وأنا أتوقّف إلى جانب الهاتف. لم يكُن لديّ من شكّ في أنّ هذه المسألة مسألةُ حياة أو موت عند آندريه، ولم أشكُك في أنّه يُبيّتُ النيّة على الانتحار، إلّا إذا تمكّنُت من ثَنْيِه عن عزمه، أو على أقَلّ تقدير أن أؤجّل تنفيذ قرار صارم مثل هذا القرار. هل تُراني أجد في نفسي من القوّة ما يكفي لفعل ذلك؟ وفي حين أنّه لن يغفر لي حنثي بوعدي، لكن هل يهمّ ذلك في ظلّ هذه الظروف؟ فلتذهب الوعود والشرف إلى الشيطان! ينبغي إنقاذ آندريه مهما كان الثمن! وبعد أن عقدت العزم على هذا النحو بحثتُ عن رقم الأستاذ أُجِيبه واتّصلتُ به.

وقال صوتٌ مهذّب بينَ بين، ليس بالعالي ولا بالخافت، من الطرف الآخر للخط:

- الأستاذ مسافر ولن يعود قبل نهاية الأسبوع.

قُضي ذلك الأمر! فينبغي عليّ أن أقاتل لوحدي، وسأنقذ آندريه مهما كانتَ النتيجة.

وتبدَّد كلّ توتُّري مع سماح آندريه لي بالدخول، وبعد أن وضعتُ صحفة الطعام على مكتبه دلفتُ إلى الغرفة المجاورة حسب الاتفاق.

قلتُ فيما هو يُوصِد الباب ورائي:

- إنّ أوّل شيء أريد معرفته هو ما حدث بالضبط. هل يمكنك إخباري بذلك، يا آندريه، من فضلك؟

وانتظرته في صبرٍ فيما هو يطبع إجابته على الآلة الكاتبة، والتي دسّها من تحت الباب بعد هنيهة.

«أُفضِّل ألّا أخبركِ بالأمر، يا إيلين، فإن كُتِب لي الرحيل، أودّ أن تتذكّريني كما كنت في سالف عهدي. وينبغي عليّ إزهاق نفسي على نحوٍ يمنع أيّاً كان من معرفة ما جرى لي. ولقد فكّرتُ بأن أُحلّل نفسي ببساطة في ناقِلي، ولكن يجدر بي ألّا أفعل ذلك، فقد أجد نفسي وقد أُعيد تشكيلي إنْ آجلاً أو عاجلاً. فيوماً ما، وفي مكانٍ ما، سيكتشف عالِمٌ من العلماء اكتشافي نفسه بالتأكيد. لذا فكّرتُ في طريقة لا بسيطة ولا سهلة، ولكن يمكنكِ مساعدتي، وستساعدينني».

وتساءلتُ لبضع دقائق ما إن كان آندريه قد جُنَّ جنونه. وقلتُ أخيراً:

- يا آندريه، كائناً ما كان ما اخترته أو فكَّرت به، فلا يمكنني قبول حَلٍّ ينمّ عن الجبن كهذا، ولن أقبله. ومهما كانت نتيجة تجربتك من الفظاعة، إلّا أنّك حيٌّ تُرزَق، وأنت إنسان، ولك دماغ.. ولك روح. وليس من حقِّك إزهاق نفسك! وأنت تعلم ذلك!

وسرعان ما طُبِعَت الإجابة ودُسَّت من تحت الباب.

«إنّني حيّ أُرزق بالفعل، ولكنّني لم أعد إنساناً. أمّا دماغي وذكائي فقد يتلاشيان في أيّ لحظة. أما والحال على ما هي عليه، فإنّهما غير سليمَين. ولا روح بلا ذكاء.. وأنت تعلمين ذلك جيّداً!».

- إذن ينبغـي عليـك إخبار باقي العلماء باكتشـافك، فسـيمدُّونك بالعون وينقذونك، يـا آندريه!

فترنّحُـت إلى الـوراء وقـد اسـتبدّ بي الخـوف في حـين طـرَقَ هـو البـاب طَرْقَتَـين.

- يـا آندريـه.. لمـاذا؟ لمـاذا ترفض الإغاثـة التي تعلـم أنّهم سـيمدُّون لك اليـد بهـا من صميـم قلوبهم؟

فهـزّت عِـدّةُ ضربـات عنيفـة البـابَ وأفهمَتنـي بـأنّ زوجـي لـن يقبـل بمثل هـذا الحَـلّ أبـداً، فبـات لزامـاً عـليَّ أن أبحـث عـن حُجَـجٍ غيرها.

كلَّمتُـه لمِـا بـدَت لي سـاعات عـن ابننـا، وعنّـي، وعـن أُسرته، وعـن واجبه تجاهنـا وتجـاه باقـي البشريّـة. ولم يُجِـر جوابـاً مـن أيّ نـوع. وأخـيراً صحتُ فيه:

- يا آندريه.. هل تسمعني؟

فطَرَق طَرْقةً واحدة لطيفة أن «نعم».

- اسـمع إذن لقـولي، فـإنّ لـديّ فكرة أخرى. هل تذكـر تجربتك الأولى مع منفضـة التبـغ؟.. هـل تظـنّ أنّـك لـو أجريـت لهـا الاختبـار مـرّةً ثانيـة، أتظنّ أنّهـا قـد تخـرج وكلماتهـا قد انعكَسَـت إلى الصـورة الصحيحة؟

وقبـل أن أنتهـي مـن كلامـي، كان آندريـه مشـغولاً بالطباعـة عـلى الآلـة الكاتبـة وبعـد لحظـة قـرأت إجابتـه:

«لقـد فكَّـرتُ بذلـك قبـلاً. ولهذا كنـتُ أحتـاج إلى الذبابة. ينبغـي عليها أن تُخضَـع إلى العمليّـة معـي. ولا أمـل في غير ذلك».

- حاول، يا آندريه، فالمرء لا يعلم ما قد يحصل!

«لقد حاولت سبع مرّات بالفعل». كانت هي الإجابة المطبوعة على الآلة الكاتبة التي حصلتُ عليها.

- *يا آندريه! حاول مرّة أخرى، أرجوك.*

ولقد أمدَّتني الإجابة هذه المرّة ببارقٍ من أمل، فما من امرأة على وجه الخليقة فهمَت كيف يمكن لرجل على أبواب الموت أن يقبل بفعل أمر غريب، ولن يفهمنه أبداً.

«إنّني معجب بمنطقك الأنثويّ اللذيذ كأعمق ما يكون الإعجاب. ويمكننا الاستمرار بتكرار التجربة حتّى يوم القيامة بلا فائدة، ولكنّني لمجرّد إرضائك- وهي في الغالب آخر مرّة سأتمكّن فيها من إرضائك- سأجرّبها مرّة أخرى. إن لم تستطيعي العثور على النظّارة الشمسيّة الدكناء فأولي ظهركِ إلى الجهاز واضغطي بيديكِ على عينَيكِ. أعلميني متى ما كنت مستعدّة».

- *إنّني مستعدّة، يا آندريه.*

صرخت بها من دون حتّى أن أبحث عن النظّارة ولكنّني تبعتُ إرشاداته.

وسمعتُه وهو يتحرَّك في أرجاء الغرفة، ومن ثمّ يفتح باب «المُحلِّل» ثمّ يغلقه. وبعدما بدا لي انتظاراً طويل الأمد، ولكنّه في الغالب لم يَزِد على الدقيقة أو ما قاربها، سمعتُ صوت فرقعة عنيفة وتبيّنتُ من خلال جفنَيّ وأصابعي بريقاً ساطعاً.

فاستدرتُ مع انفتاح باب الكشك. لقد كان رأسه ومنكباه لا يزالون مغطَّين بالبساط المخمليّ البنّي، وكان آندريه يخرج منه في حذر. سألته وأنا أريد لَمْس ذراعه:

- *ما إحساسك، يا آندريه؟ هل من فرق؟*

حـاول الابتعـاد عنّي فاندسّـت رجله فِي كرسيّ لم أكُـن قد أزعجتُ نفسي برفعـه مـن مكانـه. ولقـد بـذل مجهـوداً عنيفـاً لاسـتعادة اتّزانـه، وانحـسر البسـاط المخمـليّ في بـطء عن منكبيه ورأسـه فيما هو يسـقط إلى الخلف.

لقـد كان الرعـب أكـثر مـن قـدرتي عـلى الاحـتمال، وغـير متوقّـع. في الحقيقـة، إنّنـي متأكّـدة مـن أنّني حتّـى لـو كنت على علم بما كان سـيجري، إلّا أنّ وطء الرعـب مـا كان ليكـون أَقـلّ قـوّة. وفي محاولـة منّـي للضغـط بكلتـا يـدَيَّ عـلى فمـي لأكتـم صرخـاتي بالرغـم مـن أنّ أصابعي كانـت تنزف دمـاً، إلّا أنّنـي صرخـتُ مِـراراً وتكـراراً. لم يكُـنْ في مقـدوري رفع عينَـيّ عنه، ولم يكُـن في مقـدوري حتّـى إغماضهـما، ومـع ذلـك كنـتُ أعلـم بأنّنـي لـو أطلـتُ النظـر إلى مصـدر الرعـب أكـثر فإنّنـي سأسـتمرّ في الـصراخ طيلة ما بقـي لي مـن حياة.

وغطّـى الوحـشُ- الشيءُ الذي كان زوجي- رأسَـه في بطء، وقام وتلمَّس طريقـه إلى البـاب واجتـازه. ومـع أنّنـي كنـتُ لا أزال أصرخ إلّا أنّنـي تمكّنـت من إغـماض عينَيّ.

أنـا التـي كنـتُ طيلة حيـاتي كاثوليكيّـة حقيقيّـة، تؤمن باللـه وبحياة آخرة أُخـرى أفضـل مـن هذه، لم يبقَ لي اليـوم إلّا أملٌ واحد، ألا وهـو أنّني عندما أمـوتُ، أمـوتُ حقّـاً، وأنّه لا وجود لحيـاةٍ آخرة من أي نـوعٍ، لأنّ هذه الحياة الآخـرة لـو وُجِـدَت فلـن أنـسى فيهـا الأمـر أبـداً! إنّنـي أراه ليـل نهـار، في اليقظـة والمنـام، وأعلـم أنّنـي مكتـوب علـيَّ أن أراه إلى أبـد الآبديـن، وربمـا حتّـى يطويني النسـيان!

وحتّـى أفنـى فنـاءً تامّاً لن يكون لشيء أن يُنسِـيَني ذلك الـرأس المربع ذا الشـعر الأبيـض بجمجمته المنخفضـة المفلطحة وأذنيهـا المُدبّبَتَين. وكان الأنـف الـورديّ الرطـب كأنف القط.. قطّ ضخـم. لكن العينـين! أو بالأحرى، الموضـع الـذي كان ينبغـي أن تكـون فيه العينـان، والذي يوجـد فيه نتوءان بنّيّـان بحجـم صحنين. وعوضـاً عن الفـم، حيوانيّاً كان أو إنسـانيّاً، كان ثمّة

شقٌّ طويل رأسيّ أزغب يتدلَّى منه خرطوم أسود مختلج يزداد عرضاً في آخره، يشبه البوق، وكان يتقطَّر منه اللُّعاب لا ينقطع.

ولا شك أنّني قد أُغشي عليَّ، لأنّني وجدت نفسي منبطحة على أرضيّة المعمل الإسمنتيّة الباردة، أُحدِّق إلى الباب المغلق الذي كان بإمكاني سماع طقطقة آلة آندريه الكاتبة من ورائه.

ولا جرم أنّني- وأنا أشعر بالخَدَر والخواء- بدوتُ كما يبدو الناس الذين تعرَّضوا لحادثٍ مريع من توُّهم، قبل أن يُدركوا تماماً ما قد حدث.

كان في حنجرتي ألمٌ فظيع، ممّا جعلني أتساءل ما إنْ كانت حبالي الصوتية قد انقطعَت، وما إنْ كان سيكون بإمكاني الكلام مرّةً أخرى.

وانقطعَت طقطقة الآلة الكاتبة فجأة وأحسستُ بأنّني سأصرخ من جديد مع ملامسة جسمٍ ما للباب واندساس ورقة من تحته.

فحبوتُ وأنا أرتعد من الخوف والاشمئزاز إلى حيث يمكنُني قراءتها من دون لمسها، وكان فيها:

«الآن فهمِت الأمر. لقد كانت هذه التجربة الأخيرة كارثةً جديدة، يا عزيزتي المسكينة إيلين. أحسبكِ تبيّنتِ جزءاً من رأس داندِلو. فعندما دخلت إلى المُحَلِّل الآن كان رأسي رأس ذبابة، أمّا الآن فليس لديّ منها إلّا عينَيها وفمها. مسكين أنتَ يا داندِلو إذ لم تجتمع ذرّاتك. أنتِ ترين الآن أنّه ليس ثمّة إلّا حلٌّ واحد، أليس كذلك؟ ينبغي أن أختفي. اطرقي الباب عندما تكونين مستعدّة وسأشرح لكِ ما ينبغي عليكِ فعله. آ».

بالطبع كان مُحِقّاً، وإنّه لمن الخطأ والقسوة من جانبي أن أُصرّ على تجربة جديدة. لقد علمتُ الآن بأنّه ما من رجاء في إنقاذه، وأنّ أيّ تجربة نقوم بها بعد ذلك لا يمكنها إلّا أن تأتي بنتائج أسوأ من سابقاتها.

فدلفت إلى الباب وقد قمت من بطحتي وأنا دائخة وحاولت الكلام، ولكن لم يخرج من حنجرتي أيّ صوت.. فطَرَقتُ الباب طرقة!

ويمكنك بالطبع تخمين باقي ما حدث، فقد شرح خطّته في مكاتيب قصيرة مطبوعة على الآلة الكاتبة، ووافقته إلى ما ذهب إليه.. وافقته إلى كلّ ما ذهب إليه!

فتبعته إلى المصنع الذي خيَّم عليه الصمت ورأسي يتلظَّى باللهب في حين أنّني أرتعش من البرد. وكان في يدي ورقة كاملة من الإرشادات، وفيها ما كان ينبغي عليَّ معرفته عن المطرقة البخاريّة.

ومن دون أن يلوي على شيء أو ينظر وراءه أشار إلى لوحة المفاتيح التي تتحكَّم بالمطرقة البخاريّة فيما هو يمرّ بها، فلم أتقدَّم خطوة بعد ذلك ورأيته يتوقَّف أمام تلك الآلة المريعة.

فجثا، ولفّ البساط حول رأسه في حرص، ثمّ إنّه تمدَّد على الأرض.

لم يكُن الأمر صعباً، فلم أكُنْ أقتل زوجي. لقد راح آندريه- آندريه المسكين- منذ زمن، بدا لي كأنّه سنين مضت. وما كنت إلّا أنفّذ أمنيته الأخيرة.. وأمنيتي.

من دون تردُّد، وعيناي ثابتتان على الجسد الطويل الساكن، ضغطت على زرّ «الطَّرق» في ثَبات. وبدت الكتلة المعدنيّة الكبيرة وكأنّها تسقط في بطء. ولم يكُن هديد المطرقة الرنّان هو ما أجفلني، وإنّما الأطيط الذي سمعته بوضوح في الآن نفسه. لقد ارتعش جثمان زو... ارتعش جثمان الشيء لثانية ثم استقرّ هامداً.

عندئذ لاحظتُ أنّه قد نسي أن يضع ذراعه اليمنى- أو بالأحرى رِجله الذبابية- تحت المطرقة. لن تفهم الشرطة أبعاد ذلك الأمر، ولكنّ العلماء سيفهمون، وينبغي ألّا يفهموا! وتلك كذلك أمنية آندريه الأخيرة!

كان ينبغي علـيَّ أن أُتِـمَّ الأمـر بسرعـة، فـلا شـكّ أنّ الناطور الليليّ سـمع هديـد المطرقـة، وأنّـه قـادم إلى هنـا في أيّ لحظـة. فضغطـتُ عـلى الـزرّ الآخـر وارتفعَـت المطرقـة ارتفاعـاً وئيـداً. وفيـما أنـا أرى المنظر وأنـا أحاول ألّا أنظـر إليـه، ركضـتُ إلى مبتغـاي وملـتُ عليه فرفعت الـذراع اليمنى التي بـدت خفيفـة جـدّاً، وحرّكتُها إلى الأمـام. وعندما عـدتُ إلى لوحة المفاتيح ضغطـتُ عـلى الـزرّ الأحمـر فهَـوَت المطرقـة مـرّةً ثانيـة. بعـد ذلـك ركضتُ مجتـازة المسـافة إلى المنزل.

وتعلمون باقي المسألة ويمكنكم الآن أن تفعلوا ما ترونه صائباً.

***

وهكذا انتهت مخطوطة إيلين.

- 5 -

في اليوم التالي اتّصلتُ بالمفوّض شاراس هاتفيّاً لأدعوه على العَشاء.

- بكلّ سرور، يا مسيو دولامبر، ولكن ائذن لي بالسؤال، هل الدعوة للمفوّض أم المسيو شاراس وحسب؟

- وهل لديك ما تفضّله من الاثنين؟

- لا، ليس في الوقت الراهن.

- حسنٌ، إذن، اختر من الخيارين ما تحب.. هل تناسبك الساعة الثامنة؟

وبالرغم من أن المطر كان ينهمر إلّا أنّ المفوّض وصل راجلاً تلك الليلة.

- بما أنّك لم تندفع إلى الباب في سيّارتك الستروين السوداء، فهل أعتبر أنّك قد اخترت المسيو شاراس، خارج الخدمة؟

- تركتُ السيّارة في شارع جانبيّ.

قالها المفوّض مهمهماً وقد افترّ ثغره في حين ناءت الخادمة بوزن معطف المطر الخاصّ به.

- ميرسي.[1]

قالها بعد دقيقة وأنا أُناوله كأساً من بيرنو، والذي أضاف إليه بضع قطرات من الماء، وأخذ يراقب تغييرها للسائل ذي اللون الكهرمانيّ المائل إلى الذهبّي إلى اللون الحليبيّ الضارب إلى الزرقة الباهتة.

- هل سمعتَ بما جرى لكِنَّتي؟

- نعم، بُعَيد اتّصالك الهاتفيّ بي صباح اليوم بقليل. يؤسفني ما جرى، ولكن ربما كان ذلك خير ما يرام. وبما أنّني مسؤول مباشرةً عن قضيّة أخيك، فإنّ التحقيق يؤول إليَّ تلقائيّاً.

- أحسبه كان انتحاراً؟

- من دون شكّ. يقول الأطبّاء أنّه سُمّ السيانيد، وهم مُحقّون فيما ذهبوا إليه، فلقد وجدتُ حبّة ثانية منه في حاشية فستانها المفتوقة.

وأعلنت الخادمة وهي تقول:

- *Monsieur est servi*.[2]

(1) شكراً. (فرنسيّة).

(2) بمعنى «عشاء سيادتكم جاهز». (فرنسيّة).

- أودّ أنّ أُطلعك على مستندٍ يُثير الفضول كثيراً، يا شاراس.

- آهٍ، نعم. لقد سمعتُ بأنّ المدام دولامبر كانت تُكثِر من الكتابة، ولكنّنا لم نستطع العثور على أيّ شيء غير الملحوظة القصيرة التي أعلمتنا فيها بأنّها انتحرت.

في عَشائنا الذي لم يضمُم أحداً غيرنا نحن الاثنين تحدَّثنا في السياسة والكُتُب والأفلام ونادي كرة القدم المَحلّيّ الذي يشجّعه المفوّض في حماس.

وبعد العَشاء أخذته إلى مكتبي في الطابق العلويّ، حيث كانت تشتعل نارٌ ساطعة، وهي عادة اكتسبتها في إنجلترا في أثناء الحرب.

ومن دون أن أسأله ناولته كأس الشراب الذي من نصيبه ومزجتُ لنفسي ما أسماه بـ «عصير البقّ المسحوق الممزوج بماء الصودا»..

- أودّ منكَ أن تقرأ هذا، يا شاراس. فأوّلاً، لقد كنتَ إلى حَدٍّ ما المعني بقراءته، وثانياً لأنّه سيهمّك أمره. وإنْ كنتَ ترى بأنّ المفوّض شاراس لن يعارض، فأودّ منكَ حرقه بعد فراغك من قراءته.

ومن دون أن ينبس ببنت شفة، أخذ إضبارة الورق التي كانت إيلين قد أعطتنيها في اليوم السابق واستقرّ على مقعده ليقرؤها.

- ما رأيك في الأمر كلّه؟

قلتها وأنا أسأله بعد ما يقرب من عشرين دقيقة بعد أن طوى مخطوطة إيلين في حرص، ودسّها في المظروف البنّي، وجعله في النار.

راقب شاراس ألسنة اللهب تلمظ المظروف، والذي كانت تنفر منه خصلات من الدخان الرماديّ، ولم يتكلَّم إلّا عندما شبّت فيه ألسنة اللهب، إذ قال وهو يرفع ناظريه في تؤدة إلى ناظريّ:

- أظنّ أنّ المخطوطة تثبت بما لا يدع مجالاً للشَكّ بأنّ المدام دولامبر كانت مجنونة جنوناً تامّاً.

ولبرهة من الزمن طويلة راقبنا النار وهي تأكل «اعتراف» إيلين.

- لقد جرى لي أمرٌ غريب صباح اليوم، يا شاراس. لقد ذهبتُ إلى المقبرة التي دُفِنَ فيها أخي. لقد كانت خاوية تماماً وكنت لوحدي.

- ليس تماماً، يا مسيو دولامبر، فلقد كنتُ هناك، لكنّني لم أشأ أن أُزعجك.

- إذن فقد رأيتني.

- نعم. رأيتك وأنت تدفن علبة الثقاب.

- أوتعرف ما كان فيها؟

- أحسبها ذبابة.

- نعم. وجدتُها بكرة اليوم، عالقة في شباك عنكبوت في الحديقة.

- وهل كانت ميتة؟

- لا، لم تكُن كذلك تماماً.. لقد سحقتُها.. بين حصاتَين.. كان رأسها.. أبيض.. كلُّه أبيض.

صدر في سلسلة

كتاب الدوحة

	2011	
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
	2012	
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرّية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنيّة	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
	2013	
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسيّة	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللّغة العربيّة	مجموعة مؤلفين

2014		
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلي العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة «العصفور الصغير»	مختارات شعرية
2015		
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي الملك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
2016		
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللّغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصريّة (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلّة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلــــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
2017		
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح
70	المقالات الصحفية	عبدالله كنون
71	قصص قصيرة	نجيب محفوظ
72	بول بولز - يوميات طنجة	إبراهيم الخطيب
73	فنّ الحَياة	سلامة موسى

74	أَقْوَمُ الْمَسَالِكِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْمَمَالِكِ	خير الدين التونسي
75	كتاب الأخلَاق	أحمد أمين
76	رِحْلَةٌ جَبَلِيَّةٌ رِحْلَةٌ صَعْبَة	فدوى طوقان
77	قِـطافٌ (مُختَارَات مِن اَلْقِصَّةُ الْقَصِيرَةُ فِي قَطَر)	مجموعة من الكتاب
78	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية (من شرقي إفريقية إلى غربيها) ج: 1	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس
79	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية. ج: 2	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس
	2018	
80	مذكرات دجاجة	إسحق موسى الحسيني
81	ماذا يقول غاندي عن اللاعنف والمقاومة والشجاعة؟	نورمان ج. فينكلستاين- ترجمة: أحمد زراقي
82	نشأة اللوحة المسندية في الوطن العربي	د. نزار شقرون
83	مِن سِيَر الأَبْطَال والعُظَمَاء القُدَماء	إس. إس. بيو - ترجمة: يعقوب صروف - فارس نمر
84	مقالاتٌ في الأدب العربيّ	إغناطيوس كراتشكوفسكي
85	سِرُّ النَّجَاحِ	صموئيل سمايلز - ترجمة: يَعقُوب صَرُّوف
86	بَيْن ثقافَتَيْن (قصص ومقالات)	مُعَاوِيَة مُحَمَّد نُور
87	إنشَاءُ المُكَاتَبَاتِ العَصْرِيَّة	أحمد الهاشمي
88	أجراس أكتوبر - مُخْتَاراتٌ مِنَ الشِّعْرِ السُّوفْيِيتِّي	ترجمة: عبدالرحمن الخميسي وآخرين
89	حكايات من لافونتين	اختارها وترجمها: جبرا إبراهيم جبرا
90	مع بورخيس	ألبيرطو مانْغيل - ترجمة : إبراهيم الخطيب
91	الرواية الجديدة والواقع	لوسيان جولدمان، ناتالي ساروت، آلان روب غرييه، جينفياف مويلو. ترجمة: رشيد بنحدو
92	غزلان الليل (حكاياتٌ شعبيَّة أمازيغيَّة)	إميل لاوست - ترجمة: إدريس الملياني

من إصدارات سلسلة كتاب الدوحة

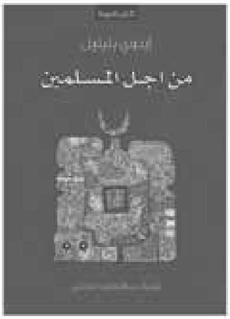

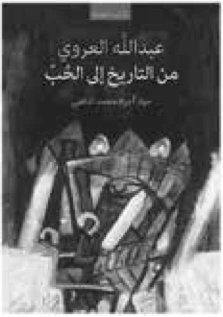

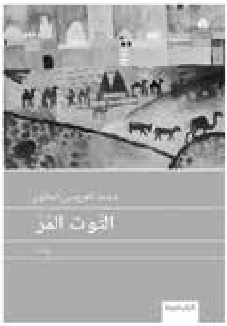

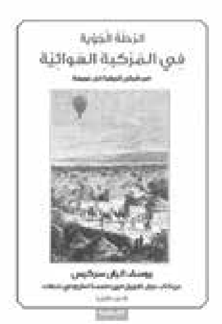

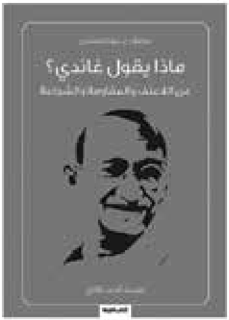

وُلِدَ جورج لانغلان George langelaan عام 1908 في باريس، وعاش حياةً حافلة، فقد شارك في الحرب العالمية الثانية جاسوساً وعميلاً خاصّاً. ومن المزاعم التي وردت في مذكّراته أنه خضع لعمليّة تجميليّة لتغيير ملامحه قبل إنزاله مظلّيّاً إبّان الحرب العالميّة الثانية، عام 1941، في فرنسا المُحتلّة بغية لقاء قوّات المقاومة الفرنسيّة، لكن ما لبث النازيّون أن ألقوا القبض عليه وحكموا عليه بالإعدام، لكنّه نجح في الفِرار عام 1942، وعاد إلى إنجلترا ليشارك في عمليّة إنزال نورماندي، التي تُعَدّ أكبر عملية غزوٍ بحريّ في التاريخ، وقد ساهمت في انتصار قوى التحالف على عدوّها النازيّ.

وأثّرت حياة المغامرات التي عاشها في كتاباته التي بدأ بها من بعد الحرب، عام 1950 إلى عام 1960، إذ كتب عدداً من الروايات والقصص القصيرة التي وجدت طريقها إلى الشاشتَين الصغيرة والكبيرة. وتُوفّي عام 1972 عن عمر يناهز الرابعة والستين.

لكن أكثر أعماله شهرةً هي قصّة «الذُّبَابَة» التي نشرها عام 1957، وقد اعتمد فيها أسلوب الروايات البوليسيّة، الذي ما يلبث أن يتحوَّل إلى الخيال العلميّ في تزاوج قد لا يكون سبقه إليه إلّا أسطوانة أساطين الخيال العلميّ، إسحق عظيموف، في روايته «كهوف الفولاذ»، التي نُشِرَتْ عام 1953، وكانت في معرض سلسلة الروبوتات التي تتضمَّن شريحةً كبيرة من مُؤلَّفاته.

تحوَّلت «الذُّبَابَة» إلى فيلم سينمائيّ عام 1958، ثم إلى فيلم ثانٍ عام 1986، ثمّ إلى مسرحيّة أوبراليّة عام 2008.